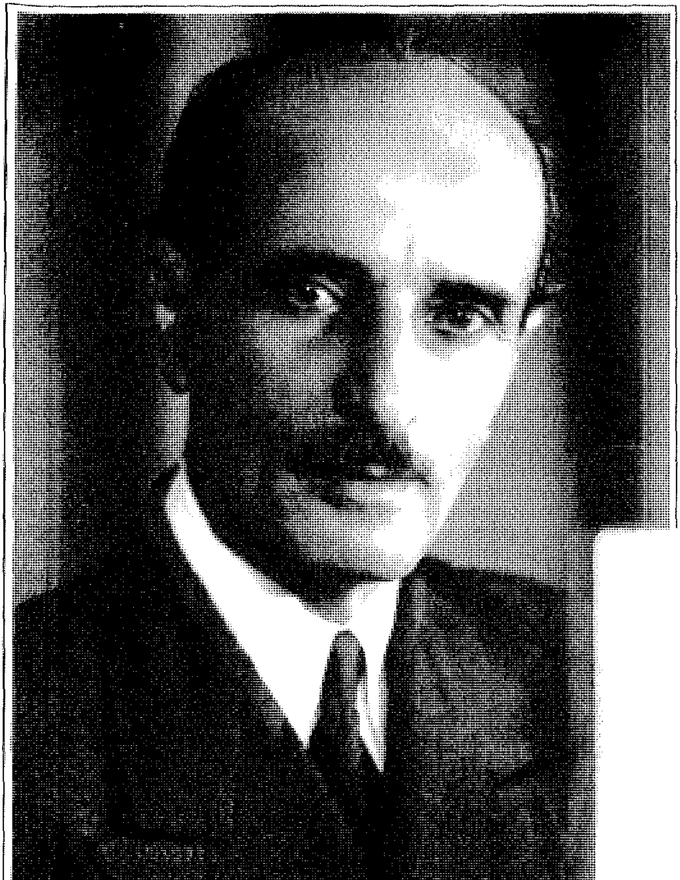
ميخائيل نعيمه

البيادر



نوفل

البيادر

ميخائيل نعيمه

البيادر

نوفل

الطبعة الثانيـة عشرة

١٩٩٦

نوفل

بناية نوفل - شارع الصوراتي
تلفون (الحمرا) : ٣٥٤٨٩٨
(سن الفيل) : ٤٩٩٠٧٤
تلفاكس : ٣٥٤٣٩٤
ص.ب : ١١/٢١٦١ أو ١١٣/٥٤٢٢

بيروت - لبنان

في العاصفة

يا أللّه!

أمس جاءني رسولك نيسان وعلى حقويه مِنطقة من شقائق النعمان والأقحوان، وعلى رأسه إكليل من النسرين والوزال، وقد لفّ ذراعيه بالورد والياسمين والريحان، وساقيه بالأرز والسرو والسنديان.

وكان جبينه سموات صافية زرقاً، وفي عينيه شموس وكواكب وأقمار، وفي فيه بلابل وحساسين وشحارير وهمهماتُ مياه كثيرة، وعلى صدره بحيرات ومروج، وفي راحتيه جواهر لا تزال مغلفة بالأسرار، وعجائب ما برحت في الأكمام، وقد تدلّت من أطراف بنانه عقود من الآمال الخضر تدغدغها وشوشات نسمات بليلات.

فما إن وطئ عتبة داري حتى أعشبت عرصاتها واخضلت، وكانت قبل جرداً ويابسة. وما إن اجتاز العتبة إلى الداخل حتى أشرقت داري وكانت عابسة، ورقصت حجارتها وكانت

جامدة، وعبقت بالطيب وكانت معفونة. وما إن صافحته حتى ماع قلبي في داخلي نعمةً وحبوراً.

لقد وددت لو يقيم الرسول عندي إلى الأبد. لكنه كان على سفر. فما كاد يسلّم حتى راح يودّع. وإذ ودعني ناولني كأساً من الماء الزلال وقال:

«اشربها ففي شربها الريّ كلّه.»

وانصرف.

وحينما رفعت الكأس إلى شفتي ألفيتها مِلحة كالدموع. فوضعتها جانباً. وسألتك بحرقة العطاش وحيرة التائهين:

«دموع مَن في الكأس يا ألله؟»

فما أعطيتني جواباً.

* * *

وبعد قليل جاءني رسولك تموز يا ألله.

فاقتادني إلى حقوله الذهبيّة حيث السنابل والمناجل والبيادر، وحيث البهائم والعصافير، والفئران والضبّان، والنمل والنحل، وكلّ ما هبّ ودبّ، تسرح وتمرح في بحبوحة من كرم الأرض وجود السماء.

فحصد كلانا مع الحاصدين، وجلسنا على النوارج مع

الدارسين، وذرّينا القمح من الأحساك مع المذرّين. وشربنا الماء قراحاً من عيون الأرض الحنون. وأكلنا الخبز مبلّلاً بندى ألف كفّ وألف جبين. وسهرنا تحت النجوم مع الساهرين.

ومشينا كذلك - أنا ورسولك تموز - في الرياض والبساتين. فصفق لنا الحور والصفصاف والزيزفون. وبخر لنا الرمّان بمباخره. ومال علينا التفاح بخدوده الحمر. ورنا إلينا الخوخ بعيونه السود. وعقد الكلّ فوق رأسينا سُرادقاً من الزمرد والياقوت والمرجان، يقينا لفحة الشمس والرياح.

فأثملتني غبطتي. ورحت أتمنى على الرسول أن يقيم معي إلى آخر الدهر.

لكنه - هو كذلك - كان على سفر. فما عتم أن ودعني تاركاً في يدي تفاحة فائقة الجمال، وقد قال لي عند الوداع:

«كلها ففي أكلها الشبع كلّه.»

ومضى.

إلاّ أنّني عندما هممت بأكل التفاحة وجدتها قلباً آدميّاً تنبض. فاعترتني قشعريرة من أمّ رأسي حتى أخمصيّ. وبيدٍ مرتجفة وضعت القلب بجانب الكأس. وبشفتين مرتجفتين سألتك:

«قلب مَن ذلك القلب يا ألله؟»

وظلّ سؤالي دويّاً هائلاً في أذني.

* * *

وبعد قليل أقبل عليّ رسولك أيلول يا أللّه. وفي مشيته جذل يترنّح. وعلى شفتيه شهادة من دم الكرمة. وفي عينيه وهج من روحها. وفي يديه فلذات من أكبادها. وعلى ظهره دنّ من النبيذ المعتّق.

فهششت للرسول وبششت وألحفت عليه في دخول بيتي للاستراحة من أثقاله ومن عناء الطريق. لكنه أبى الدخول وأخذني بيدي وسار بي على بساط من الكلإ الشائب والأوراق الكالحة المفطومة عن ثدي أمّهاتها، والهائمة على وجوهها مع كلّ ريح ونسيم.

وكانت الشمس كأنّ على وجهها نقاباً من غبار، والهواء كأنّ برأسه دواراً وفي رئتيه احتقاناً، والأرض كأن بها نزيفاً مستعصياً، والسماء كأنّها الرق ما خُطّ عليه شيء.

وما زال الرسول بي حتى بلغنا عين ماء رقراق. وما إن جلسنا إليها حتى أنزل رفيقي الدن عن ظهره. فسقاني منه وشرب. وأطعمني من عناقيده وأكل. وما كان أطيب ما أكلت وما شربت! فتمنيت عليه ألاّ يفارقني حتى يفارقني نفَسي.

لكنه - هو كذلك - كان على سفر. فما لبث أن ودعني من بعد أن ناولني حبتين من العنب لا غير وقال:

«أشعلهما عند الحاجة. ففي نورهما النور كلّه.»

ثمّ تناول الدن وأفرغه على الأرض قائلاً:

«لتسكر هي كذلك.»

وعاد من حيث جاء.

ولما رجعت إلى بيتي وفتحت يدي عن حبتي العنب ألفيتهما عينين بشريتين مغمضتين. فألقيتهما على مائدتي بجانب الكأس والقلب وصرخت إليك مذعوراً:

«لمن هاتان العينان يا ألله؟»

لكنك ما أجبتني بشيء.

* * *

وأخيراً جاءني في ليلة ليلاء رسولك كانون - كانون الثاني الأصم. فسلّم بالعواصف والصواعق، وصافح بالبروق والرعود.

وما هي غير ساعات قصيرات حتى وجدتني قابعاً في زاوية من زوايا بيتي وأمامي موقد فيه حطبات نحيلات تلحس أبدانهن ألسنة نار لعوب طروب، فيقهقهن ويزغردن، وتطفر منهنّ قلوبهنّ شرارات راقصات، ويرسب ما تبقّى منهنّ في أسفل الموقد رماداً بلا حراك.

وعلى قيد فترٍ مني هرّتي البيضاء، وقد التفّت على ذاتها في شكل كعكة وراحت تغط غطيط من يجهل الهمّ والخطيئة.

والريح في ثورة وجنون، والبرق ينهش جِلد الجَلد، والرعد في غضبة الموتور، والبَرَد كأنّه وابل من الرصاص، والظلمة قد دغمت الأرض بالسماء.

وعندما خمدت أنفاس ناري، ونضب الزيت في سراجي، وانطلقت هرّتي إلى مسامرة الفئران والجرذان، أويت إلى فراشي، وكان كأنّه من جليد. وقلت في نفسي: هنيئاً لمن له مأوى وفراش في مثل هذا الليل، وإن يكن مأواه من طين وفراشه من جليد!

لكن نومي كان سهاداً. وكان ليلي جهاداً.

فالعاصفة ما انفكّت تدور من حول بيتي وتدور، نافخة بأبواق الجنّ والعفاريت، صافرة صفير الهاويات السفلى، معولة عويل الثكالى، عاوية عواء الذئاب، زائرة زئير الأسود، صاخبة، ناقمة، مولولة. وللرعد قصف ودويّ وترجيع، وللبَرَد على سطح بيتي ونوافذه وجدرانه قوقعة آلاف الطبول يرشقها آلاف الصبية بالحصى. وللصقيع في بدني لسعات موجعات.

حتى خُيّلَ إليّ أن العاصفة لن تهدأ قبل أن تقوّض بيتي من أسسه وتطمرني تحت أنقاضه بالثلج. وعبثاً حاولت طرد ذلك

الخيال بخيالات السموات الزرق، والمروج الخضر، والخمائل الغنّ، والصحارى الملفوحة بأنفاس الهجيرة. فما كنت أُبصرني غير لقمة ضئيلة في أشداق تلك العاصفة الغضوب.

عبثاً حاولت أن أصمّ أذنيّ دون الفحيح والصفير، وأن أزرع فيهما أغاني الجنادب، وزقزقة العصافير، وحفيف الأوراق، وخرير الجداول، حتى نقيق الضفادع في ليالي الصيف المقمرات. فما كنت أسمع غير هدير الرياح وزمجرة الرعود.

فرأيتني صغيراً، وصغيراً جدّاً. ورأيتني ضعيفاً، وضعيفاً جدّاً يا ألله.

وكان آخر ذلك الليل – ولكلّ ليل آخر. لكن آخر الليل ما كان آخر العاصفة. فقد صبّحتني بمثل ما مسّتني من الضجيج والصخب، وبزمهرير أشدّ من زمهرير المساء. وما بحّت لها حنجرة ولا وهنت عزيمة.

نهضت من فراشي، والصقيع يلاحقني بألف منخز وناب، فيعضّ أصابع يديّ ورجليّ، ويخزني في كلّ مسام بدني. فتصطكّ أسناني وترتجف مفاصلي. فأسرع إلى موقدي، وأضرم فيه ناراً، وأشعر أني ربحت جولة، ولو قصيرة، من جولات عراكي مع العاصفة.

فأستكن إلى حين وأطمئن.

وتحين مني التفاتة إلى النافذة فأرى الثلج قد غمرها حتى نصفها. وأرى الريح لا تزال تبذر الأرض ببذار أبيض عجيب. وقد محت منها معالمها، وخنقت كلّ أصواتها، وحبست كل أنفاسها. فلا الجبال جبال، ولا الأودية أودية. ولا أثر لبهيمة أو إنسان، أو لدويبة أو حشرة. وبين الأرض والسماء لَبَد من السحاب الأغبر لا تنفذ العين من خلاله إلاّ لمسافة خطوات قليلات.

وتدوم حالي كذلك مع العاصفة ثلاثة أيّام متوالية تنسد في نهايتها منافخ الريح، ويخرس في خلالها الرعد، وتنفد جعبة البرق، مثلما تنفد مؤونتي القليلة من الوقود، ومن المأكول والمشروب. وتحترق آخر نقطة من الزيت في سراجي. فلا يبقى بيدي غير ثقاب واحد لا أكثر ولا أقلّ.

ويزحف الجوع والعطش والبرد والظلام عليّ من كلّ جانب. ولا يذر الثلج حتى لعيني منفذاً إلى الخارج سوى نافذة صغيرة في أعلى الجدار. فأتسلّق سلّماً وأرسل بصري إلى الآفاق القريبة والبعيدة.

وهناك أبصر ما لم تبصره عين، وأسمع ما لم تسمعه أذن.

وماذا أبصر وأسمع يا أللّه؟

أبصر بساطاً فائق البياض، لا أوّل له ولا آخر. وأبصرك في وسط ذاك البساط ومن حواليك جمّ من بني الإنسان ومن سائر مخلوقاتك. وقد اشتبك الجمع في عراك دامٍ عنيف. وأسمعك تعطي الأوامر وتدير دفّة العراك. ثمّ أبصر - ويا لهول ما أُبصر! - أبصر سواقي من الدم القاني تنساب على ذلك البساط الأبيض. والسواقي الحمر تتجمّع في بحيرات حمر. والبحيرات تتلاقَى في يمّ أحمر هائج. وأنت في وسط ذلك اليمّ تدور من حولك أمواجه الحمر وتتعالى فتغمرك أعلى، فأعلى - حتى منكبيك.

ولكنك لا تتزحزح.

فأدعوك، وأدعوك، وأدعوك. ولكنك لا تجيب.

فارتمي خائباً، مذعوراً من أعلى السلم إلى الحضيض. ولا أعلم مدى غيبوبتي عن نفسي وغيبتي عنك.

وأخيراً أفيق وبي رجفة من شدّة الجوع والعطش والبرد، وفي عيني ظلمة دامسة. فأندب نفسي. ويستسلم قلبي لشبح الفناء.

وإذ ذاك يهتف بي هاتف. فأذكر نيسان وما أهدى إليّ، وتموز وما اهدى إليّ، وأيلول وما أهدى إليّ. فأجمع ما تبقّى لي

من قوّة وأزحف في ظلمتي إلى حيث الكأس والقلب والعينان. وفي داخلي يأس صارخ: «أهذا كلّ جناي من ربيعي وصيفي وخريفي يا ألله؟!»

وأقبل على الكأس فأجرعها ولا أبقي فيها ثمالة. وتجري قطراتها جري السحر في بدني. فأحسها في عروقي دماً سخيناً وقويّاً.

وأظفر بالقلب النابض فألتهمه بشراهة. وللحال أشعر بنشاط ما شعرت قبلُ بمثله قط. فأراني قديراً على امتطاء صهوات العواصف.

وأقع على العينين المطبقتين فأشعلهما بالثقاب الباقي لديّ. وبلمحة تشرق عيناي بنور لا عهد لهما بنظيره. فينحسر سقف بيتي من فوق رأسي وتتقلّص جدرانه ثمّ تذوب في فضاء طافح بالنور عابق بالأريج.

وإذا بالبساط الأبيض سهل فسيح، فسيح. وإذا ببحور الدم مروج تموج، وتموج بالأخضر وبالأصفر وبالأحمر وبكل ألوان الأرض والسماء. وإذا بمخلوقاتك المشتبكة منذ لحظة في عراك الموت والحياة تتعانق عناق الأخوّة الأبديّة في أحضان أبوّتك السرمديّة، وبينها هرّتي البيضاء، تحيط بها جماعة آمنة من الفئران والجرذان.

وإذا بك يا أللّه في وسط الكل، ومن حول الكل، ومن فوق الكل، تغمرهم ببسمة من بسماتك، وتُحْييهم بنسمة من نسماتك، وتهمس في كلّ أذن من آذانهم:

«مَنْ لم يرتوِ بدموعه لن يرتوي إلى الأبد»

«من لم يتغذّ بقلبه لن يشبع إلى الأبد»

«ومن لم يحرق عينيه لن يبصر إلى الأبد»

والذين ما سمعوا وما فقهوا اليوم سيسمعون لا شك في الغد ويفقهون.

فما أجملك

وما أعدلك

وما أكملك

يا أللّه!

المذاهب والمتمذهبون

أنتم في عالم مُرهَفِ الظفر والناب، متوتّر الحسّ والأعصاب، واسع البطن، ضامر الصدر، حسير البصيرة والبصر، أزغب الفكر والخيال. هو عالم الإنسان المتهالك على الأوشال، وفي قبضته البحار. وعلى فتر من التراب، وله الأرض بقطبيها. وعلى بصيص من النور، والشمس والقمر والنجوم في ناظريه. وعلى نسمة من الهواء، وأنفاس الفضاء الأوسع تمرح في حنايا ضلوعه.

وأنتم من هذا العالم في بقعة صغيرة جرَفت إليها الأيّام منذ القدم - وما تزال تجرف - كل ما اسودّ من رغبات القلب البشريّ وما ابيضّ، وكلّ ما دبّ على الأرض من افكار الناس، وحلّق في الجوّ من اشواقهم. فكم غازٍ غزاها فتملّكته وما تملّكها. وكم فاتح جاءها فطوته من قبل أن يحظى بمفتاحها. وكم من نبيّ شعّ نوره من جبينها. ورسول أذاع الحقّ بلسانها. فكأنّ القدرة التي جعلتها من الأرض قلبها، ومن السماء قارورة

طيبها، ما كوّنتها كذلك إلاّ لتكون فتنة للغزاة والفاتحين، لعلّ أرواحهم تتضمّخ بطيب روحها، وقلوبهم تتجمّل بجمال قلبها. ولعلّهم إذ ذاك يدركون أن السيف مفتاح الجحيم وليس مفتاح الجنّة. وأن المدفع نذير الفناء لا بوق البقاء. وأن خيرات التراب لكلّ أبناء التراب. مَن طمع منها بأكثر من نصيبه خسر نصيبه. ومن أباحها لنفسه وحرّمها على سواه حرمته الحياة أشياء كثيرة أباحتها لسواه.

هي بقعة قلّ ذهبها وكثرت مذاهبها - هذه البقعة التي تدعونها بلادكم.

وهناك أشباه العقلاء وما هم بالعقلاء، الذين يتمنون لو تعكس الحال فتفيض هذه الأرض فضة وذهباً لا لبناً وعسلاً، وتغيض ينابيع إلهامها، فتذوي مذاهبها وتمسي هشيماً يعافه الحيوان والإنسان وتحتمي به الفئران والديدان.

فهم يقولون إن المال سؤدد وسلطان، وقلّة المال شقاء وخذلان. وهم لا يعرفون من الغنى غير الغنى بالفلس والدينار. ولا من الفقر إلاّ الفقر إلى الدار والعقار. أما أن تكون لهم ثروة لا تصدأ ولا تنتن ولا تذوب، وأما أن تكون لهم مذاهب تعلمهم ان الغنى بالشيء هو الاستغناء عنه، وأن مكمن القوّة في الفكر

والخيال لا في الظهر والعضل، ولا في السحت والمال، فكلّ ذلك عندهم هراء في هراء.

وهناك أشباه الحكماء وما هم بالحكماء، الذين يرون في كثرة المذاهب كارثة فيلومون السماء التي ما جعلت هذه الأرض منبتاً لشتى المذاهب حتى جعلتها منبتاً للشفار والنصال ومعقلاً للخصام والنضال. فتفرّقت كلمتها، ولانت شكيمتها، وهانت قيمتها. فكانت موطئاً لأقدام الفاتحين، وألعوبة في أيدي الطامعين. وهؤلاء واثقون كلّ الثقة، مؤمنون كلّ الإيمان بأن جراثيم الشقاق والنزاع إنّما هي في المذاهب عينها لا في جهل المتمذهبين بها وهم عن اكتناهها قاصرون.

ومن ثمّ فأشباه الحكماء يقولون إن مذاهب هذه البلاد قد أدت بها إلى الخمول والتواكل، والاستسلام والتخاذل. فسبقتها الأمم التي تتكل على نشاط ساعدها وقوّة إرادتها. وتركتها خلفها أشواطاً لا حول لها ولا طول، ولا رهبة ولا وقار. وكأنّهم بذلك يقولون إن من يتكل على ساعده أقوى من الذي يتكل على ساعد ربّه. لقد كفروا بالحياة وما أحسنوا الكفر. وآمنوا بشعرة من شعورها فما أحسنوا الإيمان. ولو أنّهم أحسنوا الإيمان لعرفوا أن الاتكال على القوّة التي منها وفيها وإليها كلّ شيء لهو القوّة التي

ما بعدها قوّة. ولو أنّهم أحسنوا الكفر لأدركوا وهنَ الاعتداد بالنفس وخذلان القائل: «بمشيئتي عملت وأعمل وسأعمل كيت وكيت.» أيّها الكافرون أحسنوا الكفر. ويا مؤمنون أحسنوا الإيمان. أمّا الذين لا كفرهم كفر ولا إيمانهم إيمان فأشدّ الناس وبالاً على أنفسهم وعلى الناس.

وهناك أشباه المصلحين وما هم بالمصلحين، الذين يرتأون توحيد المذاهب لاعتقادهم أن الناس إذا ما توحّدت مذاهبهم توحّدت قلوبهم وأفكارهم، فجلت عنهم جيوش التعصّب والضغينة وحلّت محلّها أجناد الوئام والسلام. إذن فليوحدوا أذواق الناس في كلّ ما يأكلون ويشربون، ويحبون ويكرهون. إذن فليوحدوا أحلامهم في الليل وأهواءهم في النهار. إذن فليوحدوا ميولهم واعمالهم، وليوحدوا قاماتهم وبيئاتهم، كي لا يحسّ واحدهم ما لا يحسّه الآخر، إذن فليصهروهم في أتون واحد ويسكبوهم من جديد في قالب واحد. لكنني أقول لكم إنّهم ولو فعلوا كلّ ذلك - وهو مستحيل إلاّ على اللّه، ولو شاء اللّه لفعله من زمان - لما خلقوا مذهباً واحداً تنصب فيه جميع قلوب الناس وأفكارهم. فما المذاهب بأنواعها سوى اتجاهات الفكر المولود إلى الفكر المولِّد، والخيال الأدنى إلى الخيال الأسمى.

هي مناقب كثيرة في جبل الوجود لكنها كلها تؤدي إلى القمة. هي شعاعات عديدة في دائرة الوجود لكنها تجتمع في محور واحد هو اللّه. فما دامت غايتك من مذهبك الوصول إلى اللّه وغايتي من مذهبي الوصول إلى اللّه، فما شأنك معي أيّ طريق أسلك إلى الهدف. وما شأني معك إذا سلكت إليه طريقاً غير طريقي؟ لعلّك نسر تبلغ القمّة بخفقة واحدة من جناحيك. ولعلني سلحفاة أدبّ في منعرجات الأرض. أو لعلّني أصبحت خيالاً هائماً كيفما اتجه واجه الخيال الأكبر. ولعلّك لا تزال شهوة خسيسة أنّى دَرَجْتُ تعثرت بخساستها. فما بالك لا يهنأ لك عيش إلاّ إذا شددتني بحبال خساستك؟ وأنا، من قبل ومن بعد، ما اخترت سبيلي إلى اللّه. بل اختاره اللّه لي. هل تكون أعدل من اللّه وأعرف بمشيئته منه؟

وأخيراً هناك أشباه المرشدين وما هم بالمرشدين، القائلون بنبذ التعصب وهم من المتعصبين، والكارزون بالتساهل وليسوا من المتساهلين. وهم يعنون بالتعصّب تَعلّق الإنسان بمذهبه تعلّقاً يحمله على كره كلّ ذي مذهب سواه. وهم يقصدون بالتساهل أن يغضّ الواحد الطرف عن الاختلافات التي بين مذهبه ومذهب جاره فلا يقاتله من اجلها ولا يضطهده، ولا سيما إذا كان

كلاهما من ابناء وطن واحد. ولهم في ذلك شعار يكثرون من ترديده وهو: الدين للّه والوطن للجميع. وكانوا أصدق نطقاً وأبعد تأثيراً لو أنّهم قالوا: «الوطن للّه واللّه للجميع.» فمن أين لنا، وكلنا عيال على اللّه، أن ندّعي الملك في الأرض أو في أيّ شطر منها، وأن نمتّن اللّه لقاء ذلك بجعلنا الدين وقفاً عليه؟ ومتى كان اللّه في حاجة إلى دين إنسان؟ إنما أحتاج إليه لأجعله ديني، ولا يحتاج إليّ لأدين به. وهو للكلّ وفي الكلّ. فمن أين لك أن تدّعي منه أكثر ممّا لي، ومتى كنتَ قادراً أن تجزّئ اللّه وتوزعه حصصاً غير متساوية على الناس كنتَ أقدر من اللّه.

أما فلسفة «التساهل» فأعيذكم منها إن كنتم من المؤمنين. فأنتم عندما «تتساهلون» مع الناس - إن في عقيدة أو ذوق أو شعور - فكأنّكم تقلدونهم جميلاً، متكرمين عليهم بحقّ ليس لهم، وواضعين أنفسكم في مرتبة أعلى منهم. وكأنّكم بذلك تقولون لهم: «نحن على هدى وأنتم في ضلال، لكنّنا نسكت عن ضلالكم رأفةً بكم ودرأً لما قد يكلفنا ردكم إلى الحقّ من تعب وجهاد».

حذار يا صاحبي أن تجعل نفسك أكرم من اللّه وأعلم منه بذاته، وأعدل منه في خلقه، فهو قد أهّلني لأحمل صورته ومثاله،

ولأمتع روحي بجمال أكوانه، وقد بسط أمامي خيرات الأرض، وسكب عليّ بركات السماء، وما منّنني يوماً بعطية. وانتَ مَن أنت لتحجبه عني، فلا اراه إلاّ بعينك، ولا أمجده إلاّ بلسانك؟ وأنتَ مَن أنت «لتتساهل» معي «فتسمح» لي أن أبصر ربي بعيني وأمجده بلساني؟ ومذهبي في اللّه هو صوت اللّه فيّ. فمن أنت لتخنقه أو «لتتساهل» معي فلا تخنقه؟ ومذهبي من روحي كأنفي من وجهي، ذاك يكمل كياني الباطني، وهذا يتمم كياني الخارجي؛ فإن أنت لم يعجبك أنفي، بل لم يعجبك من أنوف الناس غير أنفك، أفلا امتشقت سيفك وأعملته في أنوف الناس لتجعلها مشابهة لأنفك؟

إن يكن مذهبي نتانة في أنفك وقذى في عينك، فهو ليس كذلك في أنف الحياة وعينها، وإلاّ لما جادت عليّ بذاتها، وإذن أنت عندما تضطهدني إنّما تضطهد الحياة التي هي أمك وأمي وأبوك وأبي، وتجعل نفسك اعلم منها بذاتها، وأعدل منها في بنيها؛ ولعلك يا صاحبي لو تفقدت قلبك لوجدت أن النتانة التي في أنفك إنّما تتصاعد إليه من قلبك. ولعلّك لو تفقدت فكرك لوجدت أن القذى الذي في عينك إنّما تسرب إليها من فكرك.

لا. لا، يا صاحبي. خذ تساهلك عني. فحقي أن أسلك

إلى خالقي السبيل الذي يهديني إليه خيالي، لم يأتني من قبضتك ولا من حدّ سيفك. وإذا ما شئت أن تعطيني شيئاً، أو أن تأخذ مني شيئاً، فأعطني محبتك وخذ محبتي، فأنا أحوج إلى محبتك مني إلى تساهلك، وأنت أحوج إلى محبتي منك إلى زادي. وأنت إذا ما أسكنتني قلبك أدنيتني من محجتي، وأنا إذا ما أسكنتك قلبي أدنيتك من محجتك. فأنت في كلّ ما تفتّش عنه لا تفتش في الواقع إلاّ عني، وأنا لا أفتش إلاّ عنك، وما مذهبي غير سبيلي إليك، فليكن مذهبك سبيلك إلي.

قال أحدهم: «دعوني أنظم أناشيد الشعب ولا همّ لي من بعد ذلك من يسنّ شرائعه.» ولو أنّه قال: «دعوني أنظم صلوات الناس ولا همّ لي من بعد ذلك من يسوسهم» لجاء بحقيقة أسمى وأروع من تلك، فالناس مهما تنوّعت ملاهيهم من علوم وفنون، واختراعات واكتشافات، ومتاجر وسياسات، يشعرون أبداً بخيبة الهزيمة من وجه قوّة لا قوّة لهم عليها، ومهما امعنوا في طلب الملذات الأرضيّة، وسكروا بقدرتهم الفكرية والفنيّة، تمرّ بهم ساعات يرون فيها الأرض قاعاً صفصفاً، وكل اعمالهم قبض الريح؛ فلا علومهم وفنونهم، ولا اختراعاتهم واكتشافاتهم، ولا متاجرهم وسياساتهم قرّبتهم قيد شعرة من السعادة التي ينشدون

والمعرفة التي يطلبون. فهم كلّما عضّهم الألم لجّ بهم الشوق إلى الحياة الصافية من الألم فثابوا إلى أنفسهم يضرعون إلى من هو فوق اللذة والألم ويبتهلون، وهم كلّما فتّت الموت أكبادهم جدّ بهم الوجد إلى الكينونة التي لا تعرف الموت فهبّوا إلى معابدهم يستعطفون ربّ الحياة ويترجون، وكلّما طلبوا المعرفة فألفوا أبوابها موصدة في وجوههم راحوا يطرقون باب مَن ليس معرفة إلاّ منه ويسجدون له ويمجدون.

وأنتم يا ابناء هذه البقعة الصغيرة من الأرض أما كفاكم مجداً - إن كنتم للمجد طالبين - أن بلادكم نظمت صلوات نصف سكان الأرض، فأعطت أفكارهم أجنحة وقلوبهم ألسنة، وطافت بهم الأزليّة والأبدية، وسمت بأرواحهم إلى عرش السناء الأسمى؟ أم ما كفاكم فخراً أن تكون بلادكم في كلّ يوم وجهة الملايين من الأحداث والشبان، والكهول والشيوخ في كلّ أقطار الأرض، كلّما جاعوا إلى أكثر من الخبز وعطشوا إلى أكثر من الماء؟

فكيف لا تخجلون من بعد ذلك أن تحسدوا غيركم وتقلدوه، وأن تحتقروا انفسكم وتكبروه؟ أم كيف تتبرمون بمذاهبكم، وهي تراثكم الأثمن وتراث الناس أجمعين؟

ألا فتشوا مذاهبكم بإخلاص. فتشوها بلهفة العاشق. فتشوها بطهارة الطفل، وحرقة التائه، وإيمان المحتضر، تجدوا فيها السلام الذي إليه تطمحون، والطمأنينة التي بها تحلمون، والحرية التي باسمها تترنّمون.

إن شـاء اللّه

ما وقفت مرة على منبر إلاّ تمنيتها أن تكون الوقفة الأخيرة. لأنّني في كلّ ما اقوله للناس، أحاول أن أفرغ وجدي في وجدانهم، وراحي في أرواحهم، فتصدني منهم طبلة الأذن عن شغاف القلب، وحدقة العين عن بؤبؤ البصيرة. فأترك المنبر وكأنّني ما بحت بوجدي إلاّ لأزيد في وجدي، ولا قدمت راحي إلاّ لأغصّ براحي. ولكم تمنيت لو كانت الحكمة كلمة على لساني لأذيعها للناس، أو المعرفة سراجاً في يدي لأقدمها للناس. لكن الحكمة خرساء، والمعرفة عمياء، وكلتاهما في عالم أقصى من السمع والبصر - عالم قد يكون من الكلام دليل عليه، لكنه أوسع من أن يستوعبه أي كلام.

في ذلك العالم يتعانق الإله والإنسان، ويندمج الجماد بالحيوان، ويمتزج الزيت بالماء، وتلتصق الأرض بالسماء. هنالك لو فتشتم عن غدكم لوجدتموه في أمسكم، وعن مهدكم

لاكتشفتموه في رمسكم، وعن والدكم للقيتموه في ولدكم، وعن نفسكم لألفيتموها في كلّ نفس.

هنالك لا قبل ولا بعد، لا فوق ولا تحت، لا شناعة ولا جمال، لا حرام ولا حلال، لا وزن ولا قياس، بل آزال تنتهي بآباد، وآباد تنتهي بآزال، وروح واحد منبث في كلّ منظور وغير منظور، و «هنالك» ليست غير «ههنا» بيد أن الناس لا يبصرون. ولأنّهم لا يبصرون ترونهم قد جعلوا لحياتهم قياساً، وأصغر ما فيها أكبر من أن يقاس. ورتبوا لها أثماناً، وأبخس ما فيها أثمن من أن يثمن: وأقاموا الحدود والفواصل بين أعضائها، وأعضاؤها جسد واحد لا يتجزّأ. لذلك كانت أيّامهم حبلى بالشدائد ولياليهم مثقلة بالهموم. ولو أنّهم أبصروا الحياة ببصائرهم لا بأبصارهم لما كان لهم من همّ سوى همّ الانعتاق من كلّ همّ. ولو أنّهم طلبوا الانعتاق لوجدوا أن لا سبيل إليه إلاّ بطرح مقاييسهم العوجاء وموازينهم الجوفاء، ونكران مشيئتهم العمياء لأجل المشيئة الكلية المبصرة، وإفناء ذاتهم المحدودة في ذاتهم التي لا تحدّ.

ألستم تسمّون مَن شارككم في دم أبيكم وأمكم ولحمهما، ورضع الثُّديّ التي رضعتم، أخاً لكم أو أُختاً؟ فكيف

بمن شارككم في لحم الحياة ودمها ومن يرضع البقاء في كلّ لحظة من الثُّديّ التي ترضعون؟

ألستم تقدّسون الأخوّة وتؤمنون بأن صُلْب الأخوّة المحبة؟ فما بالكم تؤاخون القليل وتنبذون الكثير؟ وتحبون الواحد وتكرهون الألف؟ إن أخوّة كهذه لأخوة مقصومة الصلب لا تنزّ إلاّ القيح والوجع. إن محبة كهذه لمحبة في عينها رمد وفي أمعائها هواء أصفر. وما زلتم معرضين عن الأخوّة الصحيحة والمحبة الصحيحة، ظلّت حياتكم أرجوحة للحزن والألم وميداناً للصراع والنزاع. أمّا الأخوّة الصحيحة، فهي في تلاشي المحبّ في المحبوب.

ألستم تمشون على الأرض، فتحملكم الأرض ولا تنوء بكم ولا تئنّ؟ فما بالكم تحملون الأرض فتنوءون بها وتئنون، ثمّ تشكون الأرض إلى السماء، والسماء ما كلفتكم يوماً أن تحملوا الأرض، بل كلفتها أن تحملكم، وهي تقوم بوظيفتها خير القيام؟

ألستم تتهافتون على قصاع الحياة؟

فما بالكم تهربون من قدور الموت؟ ولو لم تكن قدور الموت مملوءة أبداً لكانت قصاع الحياة فارغة ابداً. أتخافون الموت؟ إذن

كيف تركنون إلى الحياة وأنتم عارفون أنّها تقودكم إلى الموت؟ من كره الموت فليكره الحياة، ومن أحبّ الحياة فليحبّ الموت. فما الموت إلاّ حقل الحياة ولا الحياة إلاّ بيدر الموت.

لكنّني أقول لكم إنّكم لو أنفقتم العمر في الشكر لربّ الحياة والموت لكنتم مع ذلك إلى الكفران أقرب منكم إلى عرفان الجميل.

ها هو العالم من حولكم يكاد يختنق بالدخان الذي تثيره أوهامه بأن الحياة سلعة تباع وتشرى أو تغتصب بحدّ السيف. وأن البعض يأخذ منها أكثر من الآخر، وأن هذه الكتلة من الناس أحقّ ببركات الوجود من تلك أو هاتيك.

ما قولكم، لو كان أحدكم ربّان سفينة في بحر، في صبي لا يعرف شيئاً عن تركيب السفينة والميناء الذي جاءت منه والميناء الذي تقصد اليه، يأتي الربّانَ قائلاً بلهجة الآمر: «أعطني الدفّة»؟ ألا يضحك الربانُ منه ويسير بسفينته إلى الميناء الذي يريد؟ ما قولكم لو كان أحدكم قاضياً على منصة الحكم، وجاءه غرّ لا يعرف من الشرع شيئاً، ولا مَن وضعَه ولا الغاية من وضعه، وقال له بلهجة العارف: «دعني أبتّ في الدعوى التي بين يديك»؟ ألا يسخر به ويمضي في دعواه؟

فكيف بالحياة التي لا حدّ لأعاليها ولا قرار لأعماقها ولا نهاية لعجائبها، يقوم في وجهها أحد أبنائها القاصرين - الإنسان - وفي يمناه ميزان وفي يسراه ذراع ويقول لها بلهجة السيد المتعنت: «بهذا الميزان، وبهذه الذراع أريد أن أصحّح ما اختلّ من موازينك ومقاييسك.» ألا ترون أن الحياة تربت بحنوّ على كتفه، ثمّ تجرعه من الشقاء على قدر غروره، كيما يفيق من غروره؟

هكذا يشقى العالم بغروره وسيظلّ في شقائه إلى أن يتعلّم ما تعلّمه هذا الشرق من زمان ثمّ نسي معناه - إلى أن يتعلّم قول «إن شاء اللّه».

فالمشيئة لا تكون بغير معرفة، والمعرفة لا تكون بغير مشيئة، بل إن المعرفة هي المشيئة، والمشيئة هي المعرفة. أمّا الجهل فلا مشيئة له.

كيف لمن يجهل من أين أتى أن يشاء إلى أين يمضي؟ أم كيف لمن لا يعرف علّة وجوده أن يحتم هذه الغاية، أو تلك، لوجوده؟ كيف لمن لا علم له بالأسباب أن يقر النتائج؟ لا. ليس يعرف شيئاً من ليس يعرف سوابق ذلك الشيء منذ الأزل ولواحقه إلى الأبد. من كان في مستطاعه أن يقول «أنا اعرف» حقّ له أن يقول «أنا أريد». أمّا الإنسان الذي ما برح في عالم

البدايات والنهايات والقناطير والفراسخ، فقصيّ عن هذه المعرفة. ومشيئته وبال عليه، كلّما عاكست المشيئة الكليّة. فما له، إن هو أراد التخلّص من شقائه، إلاّ أن يقول «أنا أشاء كيت وكيت، إن شاءَ اللّه كيت وكيت».

لو تعوّد الإنسان قول «إن شاء اللّه» بقلبه لا بلسانه لما عتمت المعرفة أن سكبت من نورها في قلبه. وإذ ذاك لآزرت المشيئةُ العامة مشيئته فأسعدته، بدلاً من أن تسحقها فتشقيه. لكنّه لاهٍ عن مشيئة الحياة المبصرة، وما في طاعتها من طمأنينة لا تدرك، وغبطة لا توصف، بمشيئته العمياء وما تبذره في كل يوم من مشاكل وهموم.

أوَلا ترون كيف أنّه يرهق جسدَه بتوسيع نطاق حاجاته إلى حدّ لا يطاق، ويخنق روحه بتضييق نطاق حاجاتها إلى حد لا يطاق؟ ما ابسط حاجات الجسد وأقلها لمن يعقلون! فالذي وهب الإنسان الفكر وما فيه من سحر، والخيال وما فيه من قوّة، والشعور وما فيه من جمال، لن يبخل عليه برغيف وقميص ومأوى. أولا ترون كيف أنّه يسعى جهده لامتلاك كل ما تصل إليه يداه، غير عارف أن المالك مملوكُ ما يملك؟

أولا ترون كيف انّه يدأب الليل والنهار في تحصيل ما

يحسبه ثروة أو غنى، جاهلاً أن الغني من استغنى عن الشيء لا به، وأن الزيادة في ثروة المادة نقصان في ثروة الروح؟

يا للعار أن يصبح مالك الكون مملوكاً لمال أو عقار!

يا للخزي أن تغدو صورة اللّه سلعة في أشواق الكسب والخسارة والنخاسة والدعارة!

يا للهزيمة أن يهرب مثال اللّه من اللّه إلى كهوف الهمّ ومفاوز الشكّ والشقاء! ألا فرّجوا عن صدوركم فانتم أقوى من الفناء، لأنّكم أبناء الحياة التي لا تفنى، وأنتم أغنى من أن تستعطوا، لأنكم ورثة الحياة التي تعطي أبداً ولا تستعطي. وأنتم أشدّ من أن تخور عزائمكم، لأنّكم ذرية الحياة التي لا تعرف الملل ولا الفتور.

لا تهتموا بالأسباب لأنّكم تجهلون أسباب أي عمل من أعمالكم وفكر من أفكاركم أين تبتدئ، ولا بالنتائج لأنكم لا تعرفون نتائج أي عمل من أعمالكم، ولا أي فكر من أفكاركم إلى أين تمتدّ؛ واعملوا في حقل الحياة الفسيح، مؤمنين بأنها لن تكون إلا عادلة في كل ما تقضيه لكم أو عليكم، وانها إذا ما انصرفتم عن كلّ همّ غير همّ الوصول إلى المعرفة لن تبخل عليكم بالمعرفة، من بعد أن وهبتكم كلّ وسائل المعرفة. وريثما تدركون

ذلك قولوا في قلوبكم، كلما أقدمتم على عمل أو نويتم نية أو رغبتم رغبة: «إن شاء اللّه» والحياة كفيلة بأنّكم لن تضلوا المحجّة، التي عندها تستطيعون أن تقولوا: «أنا أشاء لأنّني أعرف».

تلكم في اعتقادي هي محجة المحجات، والناس كلّهم مدركوها يوماً ما - إن شاء اللّه!

سحــر الوجــود

أعجب ما في الناس أنّـهم أبداً يطلبون عجيبة. فلكم سمعت الأشرار منهم والأتقياء، والجهلاء والعلماء، يقولون:

«يا ليت اللّه يظهر ذاته بعجيبة، إذن لآمن به كلّ الناس على السواء ولارتدعوا عن الشرّ».

وهم يقصدون بالعجيبة امرأً خارجاً عمّا ألفوه من مظاهر الطبيعة. كأن يقوم ميت من قبره، أو أن تجمد الشمس في قبة الفلك، أو أن يتحوّل ركام من الجليد إلى جبل من الحديد، أو قطرة ندى إلى لؤلؤة تباع وتشرى في أسواق الكسب والخسارة.

فكأنّ الطبيعة التي نتحسسها في كلّ لحظة من وجودنا ليست عجيبة كما هي إلاّ إذا انقلبت إلى غير ما هي.

وكأنّني - وأنا واقف أمامكم - لست عجيبة إلا إذا نبت لي جناحان وحلقت بهما فوق رؤوسكم.

وكأنكم - وأنتم جالسون تُجاهي - لستم عجائب إلاّ إذا

تحوّلتم إلى أعمدة من المرمر، أو لبستم قبع الخفاء فتلاشيتم فجأة في الفضاء.

لو أن هاتفاً هتف بكم في هذه الساعة: إن على قمة صنين عُليقة تلتهب ولا تحترق كالتي رآها موسى، لتمنيتم لو كانت لكم أجنحة تسابق البرق لتبلغوا القمة في طرفة عين، بل لزحفتم على الأرجل، إذا تعذّرت وسائل النقل، وتكبدتم مشاق الجوع والتعب لتبصروا العليقة، ولقلتم عند مرآها:

«إن هذه العليقة لعجيبة حقّاً!»

وفي مفاوز الجو السحيقة عليقة هائلة ما برحت تلتهب منذ فجر الخليقة وحتى اليوم لمّا تحترق. وأنتم لولاها لما كان في عيونكم بصر، وفي عروقكم نبض، وفي مفاصلكم حركة. ولما كان لكم ما تأكلون وما تشربون وما تلبسون. فمنها النور في نوركم، والحرارة في حرارتكم، والنشاط في نشاطكم. والتمتّع بها لا يكلّفكم فلساً من فلوسكم، ولا قطرة من دمائكم، ولا ساعة من التعب، ولا عضة من الجوع، لأنّها تقطع الأجواء الشاسعة لتسكن بلهيبها المساكن التي تسكنون، والمآكل التي تأكلون، والمشارب التي تشربون، والهواء الذي تتنفسون. فما بالكم لا ترون فيها عجيبة، أما عليقة موسى فهي عندكم العجيبة العجيبة؟

إنّما الكون كلّه - ما تبصرون منه وما لا تبصرون - عليقة تلتهب ولا تحترق: لهيبها يذكي الحياة في جسدها. وجسدها يذكي الحياة في لهيبها. فلا ذاك ينطفئ ولا هذا يترمّد. وإنّما كلّ واحد منكم تلك العليقة، عرفتم ذلك أم جهلتموه، فإذا ما ترمّد أمل من آمالكم، أو حلم من أحلامكم، أو شهوة من شهواتكم، أو عمل من أعمالكم، أو فكر من أفكاركم، فاعلموا أن النار التي التهمته ما كانت من ذلك الموقد الإلهي الذي لا يترمد فيه شيء، بل من مواقد أوهامكم التي لا تنفكّ تظهركم لأنفسكم كما لو كنتم من الكون بمكان الطالب من المطلوب، فكأنّما الكون متاع تتسابقون إلى الاستمتاع به.

أفلا ذكرتم أنّكم أبداً مطلوبون مثلما أنتم طالبون، ومسلوبون مثلما انتم سالبون، ومأكولون مثلما انتم آكلون! فالذي تطلبونه يطلبكم. والذي تسلبونه يسلبكم. والذي تأكلونه يأكلكم.

أنتم المائدة وما عليها، وأنتم الجالسون إليها. فإذا ما شعرتم بطعم الرماد في افواهكم فلأنّكم ما أكلتم غير ما ترمّد من أنفسكم وأنتم تحسبونكم آكلين ما ليس منكم لا بخمر ولا بخلّ، ولأنّكم جهلتم أو تجاهلتم أنّكم والكون وحدة لا تتجزّأ. فما

كان الكون طعاماً لكم إلاّ لتكونوا طعاماً له. ولا كانت روحه روحكم إلاّ لتكون روحكم روحه. ولا جسده جسدكم إلاّ ليكون جسدكم جسده. ولو أنّكم اتحدتم به مثل اتحاده بكم، لكنتم في نشوة دائمة من سحر الوجود، ولما صحوتم من نشوتكم تلك لتنتشوا بخمور الضغائن والأحقاد، والمطامع والمخازي، والسعايات والنكايات، وتفريق ما جمعته الحياة، وتخريب ما عمرته يد اللّه.

إنني لتمرّ بي حالات أستغفر فيها التراب كلما وطئت التراب مخافة ان أنسى أنّني من التراب وأن فيه من العجائب مثلما فيّ، وأتحاشى جهد استطاعتي أن أدوس نملة، لأنّني لا أفهم النملة، وليس في قدرتي إن أنا سحقتها أن أعوض عنها بعجيبة مثلها.

ولكم مددت يدي لأقطف زهرة في الحقل فجمدت يدي. ولكم رأيتني أنتقل من زهرة إلى زهرة وكأنّني أنتقل من حبيب إلى حبيب، وأمشي من شجرة إلى شجرة وكأنّني أمشي من جنّة إلى جنّة.

ولكم خجلت من عيني ترتدّ عن خليقة من الخلائق التي يكره منظرها الناس فرددتها إليها لتسكر بما فيها من عجيب الحركة والتركيب والمعاني.

ولكم شجبت أذني لنفورها من أصوات البوم والغربان حتى علمتها أن تثمل بما في هذه الأصوات من غريب الأوزان والألحان.

ولكم أنّبت نفسي وجلدتها لأنّها انخدعت بأباطيل الناس ففرّقت بين أجناسهم ولغاتهم وأديانهم، وفضلت جنساً على جنس، وآثرت لغة على لغة، وأكبرت ديناً واحتقرت ديناً.

هذا أسود البشرة وذاك أبيضها. فما الفرق؟ كلاهما ذو بشرة. إنّما البشرة هي العجيبة، والسواد والبياض هما العجيبة.

هذا يصلّي في مسجد أو في خلوة، وذاك في كنيسة أو في كنيس. فأين الفرق؟ كلاهما يصلي. إنما الصلاة هي العجيبة.

عجيب هو الكون وكلّ ما فيه. وأعجب ما فيه روحه المتجسدة في كلّ شيء وما هي بالشيء. وعجيب هو الإنسان بكل ما فيه. وأعجب ما فيه أنّه ما يفتأ يطلب زيادة على ما هو فيه، كأنّه قد فرغ من فهم كل ما حواليه وما بين يديه، وكأنّه قد عصر من الكون خلاصته. وإذا لم يجد أكواناً جديدة يعصر منها خلاصات جديدة أخذته السآمة، فراح يفتش عن سلوى يستعين بها على تبديد سآمته.

وبماذا يتسلّى الإنسان؟ إنّه ليتسلّى بكلّ ما من شأنه أن

ينسيه أنّه عجيبة في عالم كلّ ما فيه عجيب. يتسلّى بتقسيم ذاته التي لا تتقسم، وتجزئة الأرض التي لا تتجزّأ، وتفرقه الخليقة المجموعة كلّها في قلب الخالق، وابتداع نظم ليست من نظام اللّه في شيء. ثمّ بقتل الروح والجسد في سبيل المحافظة على ما قسم وجزأ، وفرق ونظم، فهو من الموت في سكرة دائمة، والغريب أنّه يحسبها سكرة الحياة.

أما ترونه في الحرب لا يسكر إلاّ بالدماء المهدورة، والأمعاء المقطعة، والأشلاء المبعثرة؟ ولو أنّه يسكر بهاتيك الدماء تجري حياة عجيبة في عروق عجيبة، وبتلك الأمعاء تتناول الغذاء فتحوله دماء، وبهذه الأشلاء تمشي أجساداً بشرية تحت السماء، آخذة نصيبها من خيرات الأرض، ومؤدية ما عليها للأرض، لما عرف الحروب وويلات الحروب.

أوَما ترونه في السلم يسكر بانتزاع اللقمة من فم أخيه، والقميص عن بدن جاره، وإن يكُن في تخمة من الطعام والكساء؟ ولو أنّه تعلّم كيف يسكر بلقمة يمنعها عن فمه ليضعها في فم أخيه، حتى وإن عزت اللقمة، وبقميص ينتزعه عن بدنه ليستر به بدن جاره، حتى وإن لم يكن غير قميص واحد، لما غصّ يوماً بلقمة، ولا خاف يوماً عار العري، ولما

سها عن باله أن الأرض السخيّة والسماء الرؤوم تجودان أبداً بما يفيض عن حاجته وحاجة أخيه وجاره. فيا ويله! حربه حرب وسلمه حرب كذلك.

لا: ما نسيت أن الناس يتسلون بغير التقتيل والتدمير والتهافت على ما يلذ البطن ويهلكه، ويقر العين ويعميها، ويطرب الأذن ويصمّها. ما نسيت علومهم وفنونهم، ولا معاهدهم الخيرية، ولا مشروعاتهم التي يدعونها إنسانيّة، ولا مؤسساتهم الدينيّة لكنني قلّما رأيت الشاربين من خمورها يسكرون بغير الموت.

أفلا معهد واحد يعلّمهم كيف يسكرون بالحياة؟ أفلا كيمياء تزيل ما بهم من صدإ الحسّ وتعيدهم مرآة عجيبة صافية تعكس الكون صافياً فيهم وعجيباً؟ أفلا من يعتقهم من كابوس الفنون التي ترى نصف الحياة جمالاً ونصفها الآخر شناعة؟ أفلا دين يفكهم من سحر اللحود ليسحرهم بسحر الوجود؟

علامَ يقتتل الناس وممّ يتذمّرون؟ إنّهم ليقتتلون على الرماد الذي في مواقد اوهامهم - رماد الثروة، والشهرة، والسلطة، رماد الأحساب البالية، والأنساب الجوف، والوطنيات الزائفة، ثمّ يتذمّرون من الرماد في عيونهم، وفي أنوفهم، وفي جيوبهم، وفي

أسرّتهم، وفي معابدهم ومعاهدهم. وكيف لمن يحرق قلبه في أتون الشهوات أن يبصر لقلبه بقيّة غير الرماد؟ كيف لمن يمشي على رماد قلبه أن يجني من أيامه ولياليه غير الرماد؟ كيف لمن ترمدت لياليه وأيّامه أن يفترش ويلتحف غير الرماد؟ أم كيف لمن فراشه رماد ولحافه رماد أن يسكر بسحر هذا الوجود الذي يلتهب أبداً ولا يترمّد؟

ولماذا لا يترمّد الوجود؟ لأنّه يحيا بكلّ ما فيه لكلّ ما فيه، فهو حي بالبعوضة مثلما هو حي بالأسد، وهو كلّه للبعوضة مثلما هو كلّه للأسد، وهو يلتهب ولا يحترق، لأنّ ناره وقيده، ووقيده ناره.

تأكل الأرض بنيها، ويأكلها بنوها، فلا هي بالثكلى ولا هم باليتامى، وتزدردُ الفصولُ الفصولَ، وتبقى الفصول كما هي، وتدور الشمس على محورها موزعة نارها على الأكوان، فلا محورها يبرى ولا نارها تخبو.

ها هوذا السرّ الذي منه كلّ سر - سرّ الواحد الذي لا يتجزّأ. ها هوذا السحر الذي ما فوقه سحر - سحر الانعتاق من الذات التي تريد الاستئثار بكلّ شيء وهي لا شيء، والتلاشي في الذات التي لا تستأثر بشيء لأنّها كلّ شيء، سحر التطهر من

رماد الفردية المحصورة للاشتعال بنار الكلية الشاملة، سحر المحبّة التي تقدم المحبّ قرباناً للمحبوب، والمحبوب قرباناً للمحب، فلا هي تفنى، ولا قربانها يفنى.

وهذا السرّ إن عرفتموه كنتم في غنى عن المدارس وشهادات المدارس، وهذا السحر إن ثملتم به كنتم في حلّ من سحر الرماد، وكان طعم الوجود في أفواهكم شهداً، وكانت رائحته في أنوفكم ندّاً.

الهـدم والبـناء

منذ كان الإنسان وهو يبني بيد ويهدم بيد. وحتى اليوم ما هدم فاستراح من البناء، ولا بنى فاستراح من الهدم. فلا بناؤه يثبت، ولا هدمه يدوم. ويا ليته كان في مستطاعي أو مستطاع أي بشر أن يحصي لكم كلّ ما بناه الإنسان من مدن وحصون وقرى، قبل التاريخ، وبعده، وكلّ ما شاده من حضارات، وشيّده من ممالك، وكل ما خلقه من آلهة وأديان، وابتدعه من علوم وفنون، وكلّ ما استنبطه من فلسفات ومعتقدات، وشرائع واوضاع، ثمّ انقلب عليها أو انقلبت عليه - إذن لأيقنتم أن مدنية تعيشون في ظلّها الآن ليست سوى بنيان متداع شيد من أنقاض مدنيات تداعت فانهارت من زمان؛ وأن لا بدّ لهذا البنيان من الانهيار. فالأسس التي شيد عليها ليست بأثبت من أسس أسلافه، ويا لهول ساعة الانهيار!

إنّها ساعة قد تدوم قرناً وقد تدوم دهراً، لكنها لن تنقضي قبل أن تقضي على أوهام الإنسان بأن في قدرته أن يبني ما يدوم

ممّا لا يدوم، وما يثبت ممّا لا ثبوت له؛ وأن يجني من البغضاء محبة، ويستقطر من شفرة السيف سلاماً؛ وأن يسعد بشفاء غيره؛ وأن يلجأ من الموت إلى ملاجئ يحفرها في التراب بالرفش والمعول؛ وأن ينعتق من عبوديته لجاره قبل انعتاقه من عبوديته لنفسه.

وإنّها لساعة مثقلة بالأوجاع، فليس أصعب من أن يُكرَه الإنسانُ على أن يهدم بيساره ما بنته يمينه. وأنا لا أزال أحمل من ذكريات صباي ذكرى بيت صغير صرفت ساعات لذيذة في بنائه من الحجارة الصغيرة، فما انتهيت منه إلاّ والشمس قد أشرفت على المغيب. لكني بقيت حتى دهمتني الظلمة وأنا أبتعد عنه ثمّ أدنو منه؛ وعيني مترعة بالإعجاب، وقلبي طافح بالغبطة. فقد شعرت أنّني خلقت شيئاً. ولولا خوفي من والدي لبتّ ليلتي بجانب بيتي الصغير، وما إن انبلج الصبح حتى هرولت إلى البيت أتفقده بلهفة وأتحسّس حجارته وترابه بشوق. وإذا بوالدي يلمح البيت ويلمحني عن بعيد فيأمرني بلطف أن أهدمه في الحال وأنقل حجارته من هناك لأنّه مزمع أن يحرث الأرض بما فيه البقعة الصغيرة حيث شيدت بيتي الصغير. فأنصاع لأمر والدي وفي القلب دموع كأنّها الجمر، وفي العين دياجير لا يخترقها

شعاع رجاء، وفي النفس قنوط حتى من عدل أبي الذي في السموات.

إن حكايتي الصغيرة مع بيتي الصغير لهي حكاية الإنسانيّة الكبرى مع بيتها الأكبر الذي هو مدنيتها. تفاوتت المقادير أمّا النسبة فواحدة. فالإنسان ما ينفك يبني حيث لا ينبغي البناء، وعلى أسس لا تصمد للزمان ولا للعناصر. فلا يلبث أن يأتيه الأمر بهدم ما بناه. وإن هو لم يهدمه بيده هدمته العواصف والصواعق والزلازل، ولكُم في هذه الحرب أصدق شاهد على ذلك وأبلغ مثال.

لقد قام الناس اليوم - عن رضى وعن غير رضى، وعن وعي وعن غير وعي - يهدمون بعنف لا مثيل له في التاريخ ما أنفقوا الأجيال الطوال في بنيانه وتحصينه. فالتيجان تتطاير تطاير الفراش، والصوالجة تتحطّم كأنّها الهشيم، والتخوم تتنقل كالظلال، وتقفر الدور والقصور، وتبور الأرض، وتندك المعابد، وتلتهب المصانع والمعاهد، ويولم الناس من لحومهم ولائم لأسماك البحار وديدان التراب وضواري الغاب وكواسر الجو، وتهيم أرواحهم من جحيم إلى جحيم نادبة ما كان، حانقة على القدر، مخبولة بحبّ الانتقام والأخذ بالثأر.

فيا ويل النادين! إذ ماذا عساهم يندبون؟

أيندبون معاهد أقاموها للعلم فكانت اعشاشاً للجهل؟ فها هي ذي المعرفة لا تزال ترفرف فوق رؤوس الناس، وإلى اليوم ما رأيت أثراً حتى لريشة من جناحيها في شهادة من معهد علمي كبير أو صغير. فللمعرفة ثمرة هي الطمأنينة. وللجهل ثمار هي الخوف والقلق والنزاع فالموت. فلو أن معاهد الناس العلميّة أثمرت حتى اليوم طمأنينة لما كان ما تشهدون من الذعر والتدمير والتقتيل.

أم يندبون قصوراً شيدوها للعدل؟ وها هوذا العدل لا يزال تائهاً في الفيافي والقفار، وحتى اليوم ما وطئت قدماه عتبة من عتبات القصور الكثيرة التي وقفها الناس عليه وشادوها باسمه.

أم يندبون الحرية؟ وها هي ذي الحرية ما تنفكّ تقرع قلوبهم وليس من يفتح لها الباب. فقلوب الناس مرصوفة بحبّ الأثرة والمجد الباطل والاستسلام لكلّ أصناف المخاوف والشهوات. والحرية لا تسكن قلوب المستأثرين والمنفوخين بالعظمة الفارغة والمسوقين بسياط الشهوات والمخاوف. وهي لا تؤخذ ولا تعطى، ولا تحتاج إلى من يناضل عنها، وحيثما حلّت حلّ السلام، ومع السلام القوّة التي لا تُقهر، ومع القوّة الحصانة التي لا يظفر السيف منها بغير الخيبة والانكسار.

أم يندبون السلم والرخاء؟ وهم حتى الساعة ما عرفوا طعم السلم الصحيح، لا في قلوبهم، ولا في أفكارهم، ولا في بيوتهم، ولا في نومهم، ولا في يقظتهم. أمّا الرخاء الذي يندبون فرخاء قد يكون أن بطون القليل منهم عرفته فترات قصيرة من الزمن؛ لكن بطون السواد الأعظم منهم قد جهلته الزمانَ كلّه. فما كان يوم واحد ساد فيه السلم وعمّ الرخاء.

ويا ويل أولي النقمة والثورة! إذ ممّن عساهم ينتقمون، وممّن يثأرون إلاّ من أنفسهم؟ أحبلت النقمة يوماً بغير النقمة؟ أم ولد الثأر إلاّ الثأر؟

ويا ويل الشامتين والمتبجحين! إذ بمن عساهم يشمتون وبماذا يتبجّحون؟ أيشمتون بانكسار المنكسرين، ويتبجحون بانتصار المنتصرين؟ فأحرِ بهم إذن أن يشمتوا بكلّ إنسان، وبأنفسهم قبل الناس. وأن يتبجّحوا بانتصار إبليس، إذ ليس من غالب في حروب الناس غير إبليس. وليس من مغلوب سوى الإنسان، وأعني بإبليس كلّ نزعة تعرقل الإنسان في مسيره إلى المعرفة الكاملة والحرية القصوى والاستقرار المحصن بحقيقة الوجود التي لا تتبدّل ولا تتحوّل.

فما الحروب بكلّ أنواعها - من حرب قايين وهابيل حتى

هذه التي تدور رحاها اليوم علينا أجمعين - سوى دليل قاطع على أن الإنسان المعتزّ بقدرته ومعرفته لا يزال بعيداً - وبعيداً جدّاً - عن القدرة الحقّة والمعرفة الصحيحة. إذ لو كانت له القدرة الحقّة لتمكّن حتى اليوم من بنيان عالمه على أسس لا تعبث بها العناصر ولا تزعزعها الزلازل، ولو كانت له المعرفة الصحيحة لعرف كيف يستقرّ في عالمه ذاك فلا يُكرَه على هدمه. لكنه ما ينفكّ يبني عالمه ثمّ يهدمه ليعود فيبنيه من جديد من أنقاض عوالمه القديمة، وإن بدّل في شيء ففي الشكل والهندسة، وفي ظروف الزمان والمكان، أمّا المواد فهي هي. وأما المهندس فهو هو. فلا البنيان يبلغ يوماً تمامه. ولا الهدم يقف عند حدّ. ولا الإنسان يستقرّ على حال من الأحوال.

والاستقرار هو الهدف الذي يصبو إليه الإنسان بكلّ جوارحه. لكنه حتى اليوم ما سلك إليه السبيل السويّ. فهو لكثافة الحجب التي على عينيه لا يزال يحسبه بالغاً الاستقرار الذي ينشد إذا ما استقرّت تخومه ونظمه، وأوضاعه وتقاليده، وتجارته ونقده، واستقرّت حاله واحدة مع الطبيعة والموت. فكأنّه ما علم ولا علّمته التجارب أن هذه كلّها ليست سوى فقاقيع تطفو على أمواج يتقاذفها مد الأهواء وجزرها.

فلا استقرار لها. ولا راحة فيها. ويا لشقاوة المتمسكين بها والعاقدين آمالهم عليها!

يا لشقاوتهم! فما اسرع ما تطغى عليهم موجة فتغرقهم. أو تنتابهم هزّة فتقتلعهم بجذورهم. أو تهبّ عليهم عاصفة فتتركهم أشلاء مبعثرة. فهم كالسمكة تسبح في ضحضاح محصور من مياه الأمطار فلا يقبل الصيف بأهويته الحارة وشمسه اللاهبة حتى يجفّ الضحضاح، وبجفافه تجفّ الحياة في السمكة. وهم كأزهار الربيع النابتة في خلايا الصخور، لا يطل عليها حزيران حتى تذوي فتغدو هشيماً. وهم كسحاب تموز تسوقه الريح من هنا إلى هناك فلا تلبث أن تمزّقه وتبدّده فكأنّه ما كان.

وما أكثر الذين جفّت مياههم، واقتلعت جذورهم، واضمحلّ عبير حياتهم، فأظلمت شموسهم، واربدّ وجه سمائهم، وعسكر اليأس في قلوبهم، وبلبل الذعر أفكارهم، لا لشيء إلاّ لأنّهم بنوا عالماً تخيلوه عالم استقرار وثبات وراحة، فإذا بأسسه تميد إذ تهبّ عليها عاصفة هوجاء من شقاء المتعبين والمرهقين والمنسيين والذين ضاق بهم ذلك العالم فضيّق عليهم أنفاسهم وإذا بعالمهم ينهار ويتمزّق كأنّه بيت العنكبوت. وإذا بهم - والهدم لا يزال على قدم وساق - يلملمون منذ الآن أنقاض

عالمهم ويجهدون الفكر في بنيان عالم جديد منها. وحظ عالمهم الجديد من الثبات لن يكون أوفر من حظ عالمهم القديم.

لئن حقت الشفقة على إنسان فهؤلاء بها حقيقون. وأحقّ منهم اولئك الذين يصرخون في الناس: «لقد تفاقمت شروركم وتكاثرت معاصيكم. وها أنتم تنالون جزاء الشرّ والمعصية.» وهم يعنون بالشرّ القتل والسلب والتدمير والفحشاء بأنواعها. كأنّ هذه ما وُلدت إلاّ أمس، وكأنّها ما لازمت البشرية منذ أصبح الإنسان ذكراً وأنثى. أجل. إن هذه كلّها لثمار من شجرة الشرّ ولكنها ليست الشجرة، فلو صحّ للناس إتلافها لما أتلفوا معها الشرّ. إذ أن إتلافكم للثمر لا يتلف الشجرة التي حملته.

لا. ما ازداد الشرّ ولا تفاقم. وإن تنوّعت أثماره وكثر عدد المقبلين عليها بنهم الجائع وشغف المتيّم. فالشرّ ما برح كما كان منذ كان. مثلما ما برح الخير خيراً منذ كان الخير، والحقّ حقّاً منذ كان الحقّ، والشرّ قائم في وهم الإنسان أن في مستطاعه أن يحيا بغير حياة اللّه، وأن يجني من حياته ثمرة أشهَى من اللّه، وأن يبني عالماً ثابتاً من غير أن يؤسسه على اللّه.

كل ما في السماء وعلى الأرض يحول ويزول. لكنما القدرة التي لولاها لما كانت أرض ولا سماء لا تحول ولا تزول.

فأحرِ بالإنسان الطامح إلى الاستقرار، الناشد الطمأنينة الأبدية، الساعي وراء الانعتاق من قيود المكان والزمان؛ أحرِ بصورة اللّه الناطقة ومثاله الحي أن يبني عالمه على تلك القدرة لا على ما يتناوله بحواسه المحدودة من مظاهرها المحسوسة.

أحرِ به أن يمحو التخوم والحدود التي يقيمها بينه وبين أخيه الإنسان، إذ لا تخوم في اللّه ولا حدود.

أحرِ به أن يجعل من قلبه مائدة لكلّ ما في الكون مثلما كلّ ما في الكون مائدة لقلبه.

أحرِ به أن يعانق بفكره كلّ المخلوقات مثلما تعانق كلّ المخلوقات فكره.

أحرِ به أن يغسل بدمه وِزر جاره بدلاً من ان يلبس من دم جاره وزراً فوق أوزاره.

وأحرِ به، وهو ما يزال في طور التجربة - طور الهدم والبناء - ألاّ يجعل قلبه حجراً في بنائه مخافة أن يحطم قلبه كلّما أُكره على هدم الذي بناه.

أما من بعد أن يهتدي إلى الأساس الذي لا يتزعزع فليكن كلّه في البناء. بل ليكن هو البناء كلّه.

حينئذ - لا قبل - يستريح الإنسان من شقاء الهدم وعناء

البناء. وإلى أن يتمّ له ذلك ستبقى حياته أنقاضاً تشاد على أنقاض. وسيبقى خرابه وعماره فرسي رهان. والتخريب الذي تشهدونه اليوم أو تسمعون به ليس سوى مويجة ستعقبها موجات تتضاءل كلّ واحدة منها إزاء هول التي تتلوها، وهكذا حتى تكون الموجة الكبرى من الخراب الأكبر. ولعلّ الإنسان يصحو إذ ذاك من سكرة التشييد والتدمير، فيسمع صوت الحرّاث الإلهي يهيب به إلى تنظيف الأرض من خرائب مدنياته لأنّه مزمع أن يحرثها من جديد ليعدها لبذار حياة جديدة.

فيا لطوبَى السامعين ذلك الصوت والفاهمين ما يقول، والعاملين منذ الآن على تنقية قلوبهم من أدران الضغائن والأحساد والمطامع. هؤلاء سيثبتون في وجه العاصفة، وسيكونون حجارة الزاوية في بنيان الإنسانيّة العتيد الذي سيطرح عليه اللّه وشاح ألوهيّته، ويقيم أُسسه على وحدانيّته. فتغفو الدهور على عتباته، ويضيع الفضاء في جنباته، ويخيم السلام في عرصاته.

من ظلمك؟

عرفت في حداثتي لعبة من العاب الورق الكثيرة التي كان الناس عندنا يتسلون بها في ليالي الشتاء الطويلة. وكانوا يدعونها لعبة «المظلوم».

وطريقة تلك اللعبة أن يأتي اللاعبون بمقرعة قد تكون من الجلد أو القنب أو النسيج، في طرفها الواحد عقدة ضخمة، قاسية، ثمّ بالورق وقد اتفقوا على ورقة منه يدعونها «المظلوم» وعلى أخرى تخوّل صاحبها حَمْل المقرعة، فيكون بمكانة الجلاّد.

ثمّ يوزّع الورق مستوراً على جمهرة اللاعبين. فمن كان «المظلوم» من نصيبه صاح بصوت كسير جريح: «أنا المظلوووم!» فيسأله حامل المقرعة: «ومن ظلمك؟» فيجيب: «ظلمتني الورقة كيت وكيت.» وله أن يسمّي أية ورقة تخطر بباله غير عالم في يد أي اللاعبين قد تكون. عندئذ يسأله حامل المقرعة ثانية: «وماذا تريدني أن أفعل بصاحبها؟» فيختار «المظلوم» ما شاء وما أسعفه دهاؤه على الاختيار من الوان القصاص. فإمّا يطلب قرع ظالمه كذا وكذا من

المرات، أو يكلّفه القيام بأعمال هي من المشقة بمكان، أو يعرضه للسخرية والإهانة كأن يجعله يموء كالهرّ، أو يعوي كالكلب، أو يقبّل أرجل الحاضرين، وما اشبه ذلك من الحركات التي من شأنها أن تعبث بكبرياء الظالم وأنانيته، وتثير ضحك الحاضرين منه. وعلى حامل المقرعة تنفيذ القصاص بحذافيره.

ويدور الورق دورة ثانية، فإذا بالمظلوم يغدو ظالماً، وبالظالم مظلوماً. وإذا بالقارع يُقرع، وبالضاحك من مذلّة الغير يضحك الغير من مذلّته. حتى إذا دار الورق دورات عدّة لم يبقَ من اللاعبين واحد لم يمثل دور الظالم والمظلوم، والقارع والمقروع، والضاحك والمضحوك منه معاً. وقد يتفق لأحدهم أن يمثل الدورَ بعينه غير مرة في خلال السهرة الواحدة.

هذه هي لعبة «المظلوم» كما عرفتها في حداثتي. واليوم يلوح لي أنها كانت، ولا تزال، لعبة الناس أجمعين. لكنها ليست بين أيديهم تلك اللعبة البريئة التي وصفت، بل هي لعبة تصخب بالإثم والألم، وتجري في بحور من الدمع والدم. فالناس لا يلعبونها بالورق، بل بالأفئدة والأكباد، وبالأرواح والأجساد. والناس يلعبونها لا ليقتلوا بها ملل الليالي في الشتاء، بل ليهشموا بها جمال وجه البقاء. وأمّا المقرعة التي يقرعون بها بعضهم بعضاً

فليست من مصانع الجلد أو القنب أو النسيج، بل من مواقد جهنم. والناس لا يرضون عن لعبتهم بديلاً.

ينهشُ الإنسانُ الإنسانَ من اجل حقّ موهوم. وكلاهما يصيح بأعلى صوته : «أنا المظلوم». ويشتبك شعب مع شعب في صراع محموم، وكلاهما يصرخ بملء حنجرته ورئتيه : «أنا المظلوم». ومقرعة الزمان تلعب في رؤوس الكلّ، وتأكل من ايديهم وأقدامهم، وتنهش من ظهورهم وصدورهم وتنتهي بتجريد لحومهم عن عظامهم.

أنا المظلوم! - هي ذي صرخة البشرية المفجوعة بإيمانها من عهد آدم حتى اليوم. فما إخال أن في التراب رمساً لا يرجّعها في آذان الأيّام والليالي، ولا في الفضاء شهوة مكبوتة لا تتذرع بها، ولا في مآقي الناس دمعة سخينة لا تتمخض عنها. وأنتم لو كان لكم أن تفتشوا قلوب الناس منذ كان الإنسان حتى الساعة لما عثرتم على قلب واحد لم يصرخ - ولو مرّة في حياته - «أنا المظلوم».

ولو كان لكم أن تصغوا إلى صلوات الناس وابتهالاتهم من آدم حتى اليوم لما سمعتم إنساناً واحداً يرفع ظلامته إلى ربّه من أخ له في الناسوت، إلاّ سمعتم كثيرين يتظلّمون إلى ربهم منه.

أليس من العجب بمكان أن لا يمشي على سطح هذه الأرض إنسان إلاّ مشى الظلم إليه ومعه، فكان إمّا ظالماً أو مظلوماً، أو كان مظلوماً وظالماً في آنٍ واحد؟

أليس أعجب من ذلك أن تسمع الناس كلّهم يصرخون «أنا المظلوم» وألاّ تسمع واحداً منهم يهمس، ولو في سرّه، «أنا الظالم»؟

إن يكن كلّ الناس مظلوماً فكيف لأحدهم أن يقول «فلان ظلمني»، وفلان مظلوم مثله؟ أو يكن كلّهم ظالماً فكيف لإنسان أن يصرخ «أنا المظلوم» وهو الظالم؟ أو يكن كلّهم ظالماً ومظلوماً في آن واحد، أفليس معنى ذلك أن الإنسان مظلوم بظلمه لا بظلم سواه؟

أوَليس في ذلك العدل كلّه؟ إذن، أين هو الظلم أيها الناس، ومن أين؟ بل ما هو ذلكم الظلم الذي تشكون؟

دعوا القواميس جانباً. فأنتم لو بحثتم عن كنه الظلم كما يفهمه الناس لوجدتموه ينحصر في قضيّة واحدة. وهي أن يريد الإنسان أمراً فتصده عنه إرادة أقوى من إرادته. ولكي ينال الإنسان كل ما يريد يتوجب عليه أن يكون ذا إرادة تسيطر على كلّ ما في الكون من منظور وغير منظور. إذ أنّه لا يحدث شيء في الكون إلاّ

بمعرفة الكون كله وإرادته؛ مثلما لا يرفّ لكم جفن إلاّ بمعرفة جسدكم كلّه وإرادته. فالكون جسد واحد، مثلما جسدكم واحد، وكلّ ما تبصرون منه وما لا تبصرون أعضاء حيّة في جسده الواحد الحي. أيستقلّ عضو واحد بإرادة الجسد كلّه؟

ينظر أحدكم في المرآة ويرى شبحه فيها فيقول : «هذا أنا.» وههنا موطن البلاء ومنبع الوجع، فما الشبح الذي تبصرون غير دليل لكم إلى الإنسان الأكبر الذي هو أنتم.

وينظر اللّه ذاته في ذاته فيرى الوجود بكامله ويقول: «هذا أنا.» فالوجود بكلّ ما فيه من محسوس وغير محسوس هو جسد اللّه الحيّ. وأنتم منه، وأنا. والوجود يسوس الوجود. فلا تبدر منه بادرة، ولا تبدو منه حركة، ولا يحدث فيه حادث إلاّ بإرادة الكلّ. وأكبر ما فيه يخدم أصغر ما فيه خدمة دائمة. وأصغر ما فيه يدأب بغير انقطاع لأكبر ما فيه. فخادمه أبداً مخدوم، ومخدومه أبداً خادم. أمّا إرادته ففوق كلّ إرادة. وإرادة الكون هذه هي ما ندعوه القدر، وهي التي تصدكم عن الكثير ممّا تريدون لأنّها لا تريده، وتأتيكم بالكثير ممّا لا تريدون لأنّها تريده. وهي في الحالتين أدرى بحاجاتكم منكم، لكنكم تجهلون.

فالظلم إذن   ذلك الظلم الذي يتوهمه الإنسان   هو في

ضعفه حيال القدر، لا في ضعفه حيال الطبيعة أو حيال أخيه الإنسان، وكلاهما مثله في حوزة القدر.

أنقول إذن إن القدر ظالم ومصدر الظلم؟

إني لأعيذ كلّ لبيب من مثل هذا القول الذي يتعزّى به الأغبياء والضعفاء. وبئس العزاء عزاؤهم! فالقدر أحنّ عليكم منكم، وأرفق بأرواحكم من أرواحكم، وأشدّ غيرة على حقوقكم من عقولكم وقلوبكم. والحقّ الذي يرعاه لكم القدر هو حقكم في ألوهية الله، فما انتم غير صورة الله ومثاله. أما الحقوق التي تغالون في الحرص عليها - تلك الحقوق المدوّنة في سجلات قضائكم، ومعاهدات سياساتكم، ومراسيم تقاليدكم - فليست سوى حجب تحجب عنكم وجه الله؛ والقدر يعمل أبداً على تمزيقها. وهو يستخدم كلّ ما في الكون لتلك الغاية. وأنتم لحسورٍ في أبصاركم، تحسبون خدامه أعداءكم فتنعتون هذا بالظلم، وذاك بالاستبداد، وذلك بالشرّ والشناعة، وتشهرون عليهم الحرب. وعندما تدور الدائرة عليكم تنعكفون على جراحكم تضمدونها، وتتأوّهون وتئنّون قائلين في سرّكم - أو في علانيتكم - «تبّاً للقدر ما أظلمه!» وتجهلون أن الظلم الذي تتبرّمون به ظلمكم لا ظلم القدر.

لو أن القدر تغاضى عنكم فترككم تتلهون بالقشور عن اللباب، لو أنّه رآكم تطمسون صورة اللّه فيكم فترككم وشأنكم، لحقّ لكم أن تنعتوه بالظالم. أما وهو يعمل أبداً على تحريركم من ربقة أوهامكم وعلى كشف وجه اللّه فيكم، فأعماله هي العدل بعينه ومنكم الظلم وأنتم الظالمون.

إنّما القدر أيّها الناس إرادتكم وإرادتي وإرادة كلّ ما في الكون وقد اتحدت فتألّفت منها إرادة واحدة شاملة تسوس الكون فتعطي كلّ شيء وكلّ إنسان حاجته لا أكثر ولا أقل. وتأخذ من كلّ شيء ومن كلّ إنسان حاجتها لا أكثر ولا اقلّ. فأنتم شركاء في هذه الإرادة الشاملة ولكل منكم حصّته في القدر. وحصتكم هي كلّ ما تقولونه وتعملونه وتفكرون فيه، وتشتهونه، في السرّ وفي الجهر، في اليقظة وفي المنام، عن قصد وعن غير قصد. وحصتكم هذه - ضئيلة كانت أو خطيرة - هي التي تعود إليكم مع الربا، إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً. والذي يشقى بحصته فليحاسب نفسه لا القدر.

لو كان لكل منكم أن يقرأ سجل لياليه وأيّامه لوجد فيه السبب لكل حسرة من حسراته، وبهجة من بهجاته. وما سجلات أيامكم ولياليكم غير صفحات في سجل الكون

الأعظم. فكيف تريدون أن يخلو كونكم من الشقاء وأنتم تكتبون فيه الشقاء؟ أو أن يطهر من الشر وأنتم تسطرون فيه الشر؟ أو أن يكون عدلاً وأنتم تملأون صفحاته بالظلم؟ كيف تريدون أن يصفو لكم القدر، وأنتم أبداً تعكّرونه؟ ألا انصفوا أنفسكم ينصفكم القدر.

إنّما القدر خادمكم أيّها الناس، وأنتم خدامه، وأنتم بخدمتكم له لا تخدمون غير أنفسكم، وهو يخدمكم بصدق لا صدق فوقه، وأمانة لا أمانة بعدها. فعلامَ تخدمونه وعلى شفاهكم لعنة، وفي قلوبكم غصّة، وفي عضلاتكم تراخ، وفي أرواحكم ذلّ ممتعض وامتعاض ذليل؟

إنما القدر أنتم أيها الناس. إن آمنتم به فبنفوسكم آمنتم؛ أو كفرتم به فبنفوسكم كفرتم؛ وإن أطعتموه وقبلتموه فما أنتم مطيعين غير ذواتكم ولا قابلين غير ذواتكم؛ أو عصيتموه وهربتم منه فما أنتم بعاصين غير ذواتكم، ولا بهاربين إلاّ من ذواتكم. وأنتم إن آمنتم به أطعتموه، وإن أطعتموه عرفتموه، وإن عرفتموه تفتحت لكم اسراره، فكان لكم كلّ ما تريدون، لأنّكم إذ ذاك لن تريدوا غير ما يريده الكون الذي تتصلون به اتصالاً لا انفكاك بعده، فإما فاتتكم معرفة بعضه فاتتكم معرفة كلّه.

قد يصنف كاتب كتاباً فيه الألوف من الكلمات. لكن لكلّ كلمة، وإن انفصلت في الظاهر عن سواها، صلة وثيقة بكل كلمة من قبلها، ومن بعدها، والمؤلف هو همزة الوصل بينها. ففيه تترابط الكلمات التي منها تألّف الكتاب. وهكذا في الخالق: تتصل الخليقة كلّها بعضها ببعض. فانتم في ارتباط سرمدي مع كلّ ما في الكون. إذن، كيف تبرأون مني أو أبرأ منكم، أم كيف تبرأون من شيء في العالم؟ أليس أن الأرض وما عليها والسماء وما فيها تحييان بكم وتحيون بهما؟ فأنّى لكم أن تنفصلوا عن شيء في السماء أو على الأرض؟

أنّى لكم أن تقولوا «أنا المظلوم» فإذا سئلتم «أيّها المظلوم من ظلمك؟» فأنّى لكم أن تجيبوا «ظلمني فلان أو فلان» وما فلان إلاّ أنتم في لباس آخر، ولا أنتم غير فلان في صيغة أخرى؟

لعلّ من تحسبونه جاء ليظلمكم ليس سوى رسول أرسله القدر العادل ليعلمكم العدل ويتعلمه منكم، فأحسنوا التعلم كيما تحسنوا التعليم. كونوا تلاميذ صالحين كيما تكونوا معلمين صالحين.

لعلكم تهربون من موبوء، وصحتكم وباؤه، وتردون معوزاً، ووفرتكم إعوازه، وتهزأون بضعيف، وفي ضعفه قوتكم، وتستكبرون على جاهل، ومن جهله معرفتكم.

ولعلكم تنقمون على ظالم أو تقتصون منه، وما كان ظلمه إلاّ ظلمكم، وقد أعاده القدر إليكم، فبنقمتكم عليه تزيدون في النقمة على أنفسكم، وباقتصاصكم منه تضاعفون قصاصكم لأنفسكم.

تقولون لي: «أنصفح إذن عن ظلم الظالم؟»

وأنا أقول لكم: «يا ليتكم تصفحون!» فأنتم ما صفحتم عن زلّة لأخيكم إلاّ صفحتم عن زلّة لكم. ألا طوبى وألف طوبى لمن كان الصفح درعه، والحق سلاحه! فدرعه لا تحطم وسلاحه لا يقهر. والويل ثمّ الويل لمن درعه النقمة وسلاحه الباطل! فدرعه تنفذ شظايا إلى قلبه، وسلاحه يتكسر على رأسه! لأن النقمة لا تحبل إلاّ بالنقمة، والباطل لا يلد إلاّ الباطل. ثمّ لا تنسوا المقرعة، فهي إن تكن في يدكم اليوم فلا بد من أن تنتقل إلى يد غير يدكم في الغد.

كفى الظالم قصاصاً ان يكون الظلم شريكه في لحمه ودمه، ورفيقه في غداوته وروحاته، ومحرك أفكاره وأعماله؛ بل كفاه قصاصاً أن تختاره الأقدار جلاداً لنفسه وللناس، بدلاً من أن تختاره مؤاسياً لهم ونصيراً. ولو كان صالحاً لغير الظلم لما قلّدته الأقدار وظيفة الظالم.

أيختار أحدكم برميلاً من الزفت ليجعله وعاء للنبيذ؟ ما دام فيه زفت وآثار الزفت فهو لا يصلح إلاّ للزفت؛ لكنكم إذا ما أفرغتموه من الزفت وطهرتموه جيداً، فقد يصبح وعاء صالحاً للنبيذ. هكذا الأقدار لا تختار للقتل إلاّ من كان في قلبه شر القتل، ولا للسرقة إلاّ من كان في قلبه شرّ السرقة، ولا للظلم إلاّ من كان في قلبه شر الظلم. أما القلوب الصالحة فلا تختارها إلاّ لأعمال صالحة، وكفى بالشر للأشرار قصاصاً.

ألا إنني، وإن أوصيتكم بالصفح عن الظالمين، لست أوصيكم بالصفح عن الظلم، بل أقول لكم حاربوا الظلم! حاربوه بكل أفكاركم وكل نياتكم؛ حاربوه في الليل وفي النهار؛ حاربوه في الجهر والسر. حاربوه، ولكن في نفوسكم لا غير. فمتى طهرت نفوسكم منه طهرت حياتكم من آثاره وأصبحتم آنية صالحة للعدل لا يقوى على اقتحامها ظلم الظالمين ولا عبث العابثين.

ومتى طهرت نفوسكم من الظلم آمنتم بعدل القدر في كلّ ناحية من نواحيه ومأتى من مآتيه، وعرفتم أن ظلم الناس للناس هو عدل اللّه في الناس - عدل الإله الذي أعطاكم الحقّ في ألوهيته، ثمّ سخر الأقدار لخدمتكم، فجعل منها حراساً لحقّكم الإلهي، وهداة يهدونكم إلى ميراثكم الأبدي.

ألا تبارك عدله الذي لا يُحد!
وتباركت حكمته التي لا تُدرك!
وتباركت محبته التي لا توصف!

رغـوة وصـفـوة

(أذيعت في «ذكرى الريحاني»
في راديو الشرق – بيروت)

الكون رغوة وصفوة.

إنّما الشجرة بجذعها وجذورها، وعديد أغصانها وأوراقها، رغوة صفوتها الثمرة. والثمرة رغوة صفوتها النواة. والنواة رغوة صفوتها تلكم القدرة العجيبة التي تبعثها شجرة.

وإنّما السحابة بطولها وعرضها، وأشكالها وألوانها، رغوة صفوتها وشل من البحر. والبحر رغوة صفوتها قطرة من الماء. وقطرة الماء رغوة صفوتها ذلكم الإكسير السحري الذي يجعل منها حياة للأرض ومواليد الأرض.

وإنّما الإنسان بلحمه ودمه، وفكره وقلبه، رغوة صفوتها الخيال. والخيال رغوة صفوتها الحياة. والحياة رغوة صفوتها اللّه.

رغوة هو العمر بكلّ ما يتخلّله من مدّ الأهواء وجزرها، وثورة الأفكار واستكانتها، وثرثرة اللسان والقلم، وكدح اليد والقدم. أمّا

صفوة العمر فلمحة من سني الحقّ، وقبس من ناره الأبدية، ونفحة من ذلكم الروح القدوس - روح الفهم الذي يصهر كلّ الناس في إنسان واحد يهزأ بالزمان وأحابيله وبالمكان وثآليله، فلا يرضى له موطناً غير حضن اللّه، ولا مسكناً غير قلب اللّه.

والناس، إلاّ قليلهم، يلهون من اعمارهم بالرغوة. حتى إنّهم لا يبصرون ولا تكاد تبصر لهم من تحت رغوتهم صفوة. وهم يغالون في الحرص على رغوتهم فيقيمون لها المراتب والأثمان والأوزان.

هذا رجل اتجر فأثرى فهو عظيم. وهذا آخر قاد الجيوش ودوّخ الأمصار فهو أعظم. وهذا ثالث ألّف الكتب، أو رسم الرسوم، أو أنطق الأوتار بألحان شجيّة فهو أعظم وأعظم. وهم في مغالاتهم لا يتورعون من التربّع تحت سدرة المنتهَى، ومن نثر أزاهير الخلود على رغوة هذا الإنسان أو ذاك. كأنّما الخلود طبق من الحلوى أعدّوه في مطابخهم، أو وسام سكّوه في مصانعهم.

ألا فليعلم الناس أنّه إن يكن بينهم من خالد واحد فكلهم خالدون، أو يكن واحد للفناء فكلهم للفناء، وأنهم خالدون بما فيهم من صفوة السماء لا من رغوة الأرض.

ها نحن نحيي ذكر إنسان، ما تميز عن سواد الناس إلاّ بأنّه

ما قنع من عمره بالرغوة، بل أحسّ في نفسه جوعاً هاصراً إلى أكثر من الخبز، وعطشاً قتّالاً إلى أكثر من الماء. فراح يبحث عمّا يسدّ به جوعه، ويروي عطشه. فكان لا بد له من أن يثير بتجواله وتنقيبه الكثير من الرغوة والزبد. ولكنها رغوة غير رغوة الذين لا يحسون سوى تكمش عضلات المعدة. ولكنه زبد غير زبد الذين لا يشعرون إلاّ بجفاف الحلق والأمعاء. فرشاش من رغوته ما يزال يمعن في الصعود بينا رغوة الكثير ممّن عرفهم وعرفوه من الناس تفور على الأرض لتتلاشى فيها. ورذاذ من زبده لا يزال يهبط على جمهرة من القلوب القاحلة فينعشها، في حين أن زبد الكثير من أبناء جيله ما وقع على قلب إلاّ أضناه.

إذا ما ذكرتم الريحاني فاذكروا رجلاً قام في بيئة ألدّ أعدائها الفكر الحرّ والقلم الصادق. فما كان منه إلاّ أن اتخذ من فكره أخلص خدن له، ومن قلمه أصدق رفيق لفكره.

ثمّ اذكروا رجلاً جعل من بيانه مطية رشيقة الخطى، جميلة الهندام، سلسة المراس لفكره الملحاح وقلبه اللجوج. وذلك في زمان كان فيه الفكر والقلب مطية ذلولاً لبيان تفشت في عروقه المرضوضة كبرياء الموت.

ثمّ اذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان

اليقظة الحديثة في هذه البلاد حيث المسالك وعرة، والعقبات أكثر من أن تحصى. فما لوى عنان جواده يمنة أو يسرة، ولا ارتدّ منهوكاً ولا وجلاً من المقدمة إلى المؤخرة.

لقد جاب الريحاني من الأرض بقاعاً واسعة، وبقاعاً أوسع منها من مسارح الفكر البشري. ولقد حدّث الناس حديثاً طليّاً وأخّاذاً عن جلّ ما عرفه من الأرض وبلاه من أبناء الأرض. وشاطرهم ما اهتدى إليه من الغلال المجموعة على بيادر الفكر من حنطة وزؤان وما غرفه من بحر الفكر بين تثبيت ونكران.

ليس من المستغرب لرحّالةٍ قلقٍ كالريحاني أن يكون شديد الحذر، فلا يأخذ الأمور إلاّ بعد تمحيص، كما أنّه ليس مستغرباً أن يكون أشدّ الناس حذراً أكثرهم عثرات. فما أكثر ما تقبّله الريحاني ثمّ نبذه، أو شكّ فيه ثمّ أثبته، أو اعتنقه ثمّ أنكره، أو أقصاه عن فكره ثمّ قرّبه!

لكن هناك عقيدة اعتنقها الريحاني وظلّ أميناً لها بلسانه وقلمه حتى آخر نسمة من حياته. وهي عقيدته ان الروح العربيّة يجب أن تُبعث من جديد، فتلم شتات العرب في كلّ قطر، وتجعل منهم أمّه موحدة الرغائب والقوى. وذلك بالأساليب السياسيّة والاقتصادية والعمرانيّة المألوفة.

وثمة عقيدة ثانية ما حاد عنها الريحاني في كل ما عرفته من حياته، وهي أن الإنسان ما خُلق إلاّ ليكون حرّاً. فمن أقدس واجباته أن يجاهد في سبيل حريّته بغير هوادة ولا ملل، لا سيما حرية الفكر والضمير.

وثمة ثالثة تكاد تكون صفوة حياة الريحاني. فقد قال لي مرّة على أثر نوبة من الوجع المبرح الذي كان ينتابه في كتفه اليمنى:

«يلوح لي أن ليس في حياتنا من حقيقة راهنة إلاّ الألم.»

ولقد فهمت آنئذ أنّه لم يعنِ ألم اللحم والدم وحده، بل الألم بكل مظاهره ومعانيه. ذلكم الألم الذي لولاه لما انفلقت بذرة عن نبتة، ولا ولد حيوان من حيوان أو إنسان من إنسان، ولا ولج الحبّ قلباً، ولا نزلت آية من الوحي على لسان، ولا عرف الإنسان أخاه وربّه، ولا اندلعت من أعماق روحه ألسنة الأشواق المحرقة إلى عدل أسمى وأعدل من عدله، وجمال أبهى وأجمل من جماله، وبقاء أحلى وأبقى من بقائه.

والريحاني سبر أغواراً بعيدة من الألم بشتى مظاهره. وانتم عندما تقرأون ما خلّف لكم من آثار أدبيّة فلا تنسوا أنكم تقرأون أحرفاً مشوية في أتون من الآلام الجسدانيّة والنفسانيّة. ولئن بدت

تلكم الأحرف لأعينكم أحياناً كأنّها في شيء من الزهو والمرح، فاعلموا أن زهوها ومرحها ليسا غير براقع سدلها الريحاني عليها من نسيج صبره الجميل وإيمانه القويّ بأن الاقرار بالألم أمَرّ من الألم، وأن في الصمود للألم غلبة عليه، وفي إخفائه عن اعين الناس رحمة للناس وعزاءً طيباً للمتألّم.

لقد كان الألم رفيق الريحاني حتى آخر نحب من أنحابه. ولعلّ صفوة آلامه - وأكاد أقول صفوة حياته - تنحصر في ابتهاله الأخير كما نقله الناعي إليكم وإليّ:

«يا إلهي ارحمني!»

إنّه لألم مبارك ذاك الذي نصحو بمهمازه من سكرة العمر لنسكر سكرة الأبدية. وإنّه لوجع مقدس ذاك الذي يسوقنا صاغرين إلى القدرة التي منها انبثقنا، ويعرينا من كبرياء التراب ليمنطقنا بجبروت الروح.

وكأنّي بالريحاني عندما ابتهل ذلك الابتهال نفض عنه رغوة الأيّام والليالي فأبصر من تحتها صفوة الآزال والآباد، وأدرك أن لا ملاذ من الألم إلاّ برحمتها. وها أنذا أبتهل معه من أجله، وأجل نفسي، وأجل هذا العالم المنكوب برغوته: صفّنا اللهمّ من رغوتنا وارحمنا!

الفنّ الأكبر

جاء في الكتاب أن اللّه خلق الإنسان على صورته ومثاله.

لست أدري، أمِن المؤمنين أنتم أم من الملحدين، وإن كنتم من المؤمنين، فأيّ الإيمان إيمانكم؟ أو كنتم من الملحدين فأيّ الإلحاد إلحادكم؟ إذ أنّ في الناس من يتبجّح بالإيمان وفي تبجّحه الإلحادُ كلّه. وفيهم من يغالي في الإلحاد وفي مغالاته الإيمانُ كلّه. مثلما فيهم الذين لا قدرة لهم على الإيمان ولا على الإلحاد.

أمّا أنا - أجارني اللّه وأجاركم من هذه النون بين ألفَين! - فأومن باللّه وبأنّه مصدر كلّ منظور وغير منظور. وإيماني به هو حجر الزاوية في حياتي. وأومن بالإنسان وبأنّه على صورة اللّه ومثاله. وإيماني بالإنسان هو الفُلك التي تحملني في خضم هذا الوجود.

لولا إيماني باللّه لما كان إيماني بالإنسان. ولولا إيماني بالإنسان لما كان إيماني باللّه. فالإيمانان من معدن واحد، بل هما واحد. والذي هداني إلى اللّه هو اللّه ذاته، لا ما قرأت بشأنه في

الكتب المنزلة وغير المنزلة. والذي قادني إلى الإنسان هو الإنسان نفسه، لا ما وعيته من آثاره وتواريخه ودرسته من علومه وفنونه. فعبثاً ندّعي الإيمان باللّه قبل أن ينكشف لنا اللّه في الإنسان، وعبثاً نحاول فهم الإنسان قبل أن يتجلى لنا الإنسان في اللّه. وعبثاً نطلب ذاك أو هذا قبل أن ينعتق الخيال فينا من كلّ قيد، فيبصر الخالق في الخليقة، والخليقة في الخالق.

ما خلق اللّه في كلّ ما خلق إلاّ ذاته. إذ ليس فوقه أو تحته، ولا أمامه أو خلفه، ولا قبله أو بعده شيء لم يكن فيه منذ الأزل. كما أنّه لا يفيض ينبوع إلاّ بالذي فيه، ولا تأتي شجرة بغير الثمر الذي في أحشائها، ولا يشتعل عود إلاّ بالنار التي في قلبه — كذلك لا يفيض من اللّه إلاّ اللّه، ولا يثمر اللّه إلاّ اللّه، ولا يسطع اللّه بغير اللّه، لذلك كان الإنسان الصادر عن اللّه صورة لمصدره. فكان أزليّاً بأزليّته، أبديّاً بأبديّته، خالقاً بعين القدرة التي خلقته.

لكنها صورة لا تزال غامضة في الإنسان المتدثّر بدثار الحس الخشن وكلّ ما يُلازمه من خير عليل وشرّ هزيل. وكأنّها الصورة الشمسيّة قبل تظهيرها. وإذ ذاك فغاية الإنسان من وجوده واحدة لا تقبل الشرك من أي نوع كان. ألا وهي تمزيق دثار الحسّ لتظهر الصورة بتمامها فيرتفع الإنسان إلى ما فوق الخير والشرّ. وإذ ذاك

فما الزمان بعقوده، والمكان بحدوده، والموت بظلماته، والولادة بأشعتها، وكل ما يتخلل ذلك من أنين وحنين، وذعر وطمأنينة، وقلق وسكينة، سوى مساحيق وعقاقير سحريّة تُعدّها لنا الحياة لنجلو بها صورة اللّه فينا. حتى إذا ما انجلت كلّ الانجلاء أصبحنا في غنى عن تلك المساحيق والعقاقير إلى الأبد، وعدنا نساعد في استعمالها أولئك من إخواننا في الناسوت الذين ما برحت صورهم غامضة، مبهمة. والناس من هذا القبيل رجلان: رجل يعرف الغاية من هذه المساحيق والعقاقير فيحسن استعمالها ليخلص منها بها، ورجل يجهل الغاية أو يشرك معها غايات سواها؛ فمساحيق الزمان والمكان، وعقاقير الخير والشرّ، وعناصر الموت والحياة لا تزيد صورة اللّه فيه إلاّ غموضاً. وما دام اللّه فينا غامضاً دمنا في ظلمات السجون وقبضة العذاب.

هذه صفوة إيماني بالإنسان وحياته. ومن كان ذلك إيمانه نبَتْ به روحه عن كلّ معرفة سوى المعرفة بأنّه صورة اللّه، وجنحت به عن كلّ إرادة سوى الإرادة المنبثقة من تلك المعرفة والتي لا هدف لها إلا الكشف عن الصورة والتمتع بها صافية، ساطعة، كاملة. فأصبح كلّ علم وكلّ عمل، في نظره، بل كلّ نيّة لا تستمدّ حياتها من هاتيك المعرفة وجعاً وغباوة. وأصبحت كلّ إرادة لا تستوحي قوّتها من تلك

الإرادة غلاً في العنق وسهماً في الكبد. وهكذا كانت عنده معرفة اللّه في الإنسان وإرادة الوصول إليه نقطة الدائرة من الحياة. فكان كلّ ما تركّز فيها ثمّ انبعث عنها من اعمال الناس عبّارةً من أفق واسع إلى أفق أوسع. وكان كلّ ما زاغ عنها خيبةً تقود إلى خيبة، وعثرة تفضي إلى عثرة.

والآن ماذا عساني أقول في الفنّ الذي سألتموني أن أحدّثكم عنه، والذي أحاطه الناس بهالةٍ من التمجيد والتعظيم، والتبخير والتكبير؟ هل يخرج الفنّ عن أنّه عملٌ من اعمال الناس؟ إذن هو كسائر أعمال الناس. منه ما يتركّز في نقطة الدائرة التي حدثتكم عنها. ففيه معرفة ولهُ إرادة. وهو القليل القليل. ومنهُ ما هو زائغ عن نقطة الدائرة. فلا معرفته معرفة، ولا إرادته إرادة. وهو الكثير الكثير. الأوّل يجلو صورة اللّه في الإنسان. والآخر يضمنها بكثير الخطوط والأصوات، والنبرات والحركات، والأشكال والألوان. الأوّل يفرض ذاته علينا فرض الصلاة على المؤمن، والنعاس على الجفن، والأريج على الأنف، والنور على حدقة العين. والثاني يحصرنا بدعاواته الطويلة عن رسالته «العلوية» في خدمة الحقّ والجمال. وحقّه لا يتجاوز اللحم والدم فهو خدعة. وجماله لا يتعدّى نطاق البصر فهو شناعة.

إذا أردتم مثلاً للفن الذي يذهب بالإنسان إلى أبعد من الإنسان فلكم في أي هرم من اهرام مصر ذلك المثال. خذوا هرم الجيزة: جدران أربعة محدودة ترتكز على قطعة محدودة من الأرض، وهذه الجدران يتماسك بعضها ببعض وبالأرض تماسكاً يجعل منها كتلة واحدة تبدو عند قاعدتها أبديّة بثباتها، مروعة بضخامتها، ساحقة بثقلها. ثمّ تأخذ في الارتفاع قيراطاً فقيراطاً، وفتراً ففتراً؛ وإذ ترتفع ينحني بعضها إلى بعض، وتبقى متشابكة متماسكة. لكنها كلّما ازدادت ارتفاعاً ضاقت مساحة، ونقصت ضخامة، وخفّت وزناً، وعندما تبلغ أقصى مداها في الارتفاع تتلاشى في نقطة في الفضاء. هي نقطة الانفكاك - نقطة الانعتاق - نقطة تلاشي النهايات في اللانهاية. فكأن جهات الهرم الخمس - جدرانه الأربعة والأرض التي تحتها - ما تضخمت في البداية إلاّ لتتقلّص في النهاية، ولا ثقلت وزناً إلاّ لتصبح بغير وزن، ولا ارتبط بعضها ببعض إلاّ لتنفك من كل رباط، ولا كانت شيئاً إلاّ لتغدو لا شيء.

وهذه بالتمام حال الإنسان مع حواسه الخمس؛ فهي لا نفع منها إلاّ كدرجات يرقى بها الإنسان إلى ما وراء الحسّ، ولا خير في قيودها إلاّ لننعتق بها من كل قيد، ولا معنى لوجودها المحدود إلاّ لنبلغ بها الوجود الذي لا حد له.

ويلذّ لي، قبل أن أترك مثال الهرم، أن أذهب به معكم إلى أبعد ممّا ذهبت، فأسألكم أن تتمثلوا هرماً قائماً على شاطئ بحيرة صافية، وقد انعكس ظلّه في مائها، فبان الهرم وظلّه كما لو كانا هرمين مستقلين تلاصقت قاعدتهما، وكانت قمة الواحد في الفضاء وقمة الآخر في الماء. ومن ثمّ أريدكم أن تتمثلوا خيال الهرم في الماء كما لو كان خيال العالم في ضمير الله، وقمته كما لو كانت نقطة المصدر. أما شاطئ البحيرة فتمثلوه كما لو كان الحدّ الفاصل بين عالم الخيال وعالم الحسّ، أو عالم الروح وعالم المادة.

يبتدئ الظلّ في نقطة لا سبيل لنا إلى إدراكها، لا بالحسّ لأنّها لا تحسّ، ولا بالعقل لأنّها أبعد من مجال العقل، ولا بالفكر لأنّها أوسع من نطاق الفكر، وقد نستطيع أن نتخيّل وجودها لأنّها خيال. ثمّ يستطيل الظلّ ويتسع في خطوط تجعل لهُ شكلاً، ولكنه شكل نعيهِ بالخيال لا غير. ثمّ ينتهي الظلّ بالشاطئ فإذا بهِ يتحوّل فوقهُ إلى طائفة من حجارة متراصة، مترابطة، لها وزن ولها شكل، ولها لون ولها قياس. وهذه الحجارة تمعن في الصعود إلى أن تنتهي في الفضاء بمثل النقطة التي ابتدأ منها الظل في الماء، فلا وزن لها إذ ذاك ولا شكل، ولا لون ولا

قياس. هكذا يتكاثف الروح فيغدو مادّةً. وتتقلّص المادة فتعود روحاً.

ولكم من بعد ذلك أن تتمثلوا كلّ إنسان هرماً مستقلاًّ في ذاته. ثمّ أن تتمثلوا ذلك الهرم حجراً في هرم أكبر هو البشرية، والبشرية حجراً في الهرم الأكبر الذي هو الكون. وعندئذٍ فالبشرية التي نحن منها ليست مجموعة أجناس وطوائف وملل ونحل، يفضل بعضها البعض بقوته أو بماله، أو بجاههِ أو بسلطانهِ، أو بنسبه او بعلمهِ. بل هي بناء واحد أسفله في التراب وأعلاه في اللانهاية. وهو بناء متحرك لا يعرف الجمود. أسفلهُ ينهض أبداً بأعلاه إلى فوق، وأعلاهُ يجذب أسفله إلى حيث لا قيد ولا حدّ، ولا ولادة ولا موت، ولا عقاب ولا ثواب - إلى اللّه. ولا فرق بين حجر وحجر في هذا البناء - أي بين إنسان وإنسان - إلاّ على قدر ما يقترب الواحد من الأساس والآخر من القمّة. فالذين في أسفل هم الذين يحملون أثقال الحواس الساحقة ولم يتنبّه خيالهم بعد ليهديهم إلى الصلة الأبدية التي بينهم وبين القمّة وإلى الإيمان بأنّهم بالغوها يوماً ما. والذين اقتربوا من القمّة هم الذين نشط خيالهم واشتدّ إيمانهم فخفّت اعباؤهم الحسيّة. والذين بلغوا القمّة هم الذين انعتقوا من ربقة الحسّ فما عادوا

يشعرون بجاذبية الأرض وضغط السماء. وقد يكون في أعالي الهرم كثير ممّن يحسبهم الناس في اسفله. وفي أسفله كثير ممّن يحسبونهم في أعاليه. ربّ حجرٍ يلاصق القمّة كان عبداً عند الناس، وربّ سلطانٍ عندهم لم يكن غير حجر في الأساس.

ما تماديت في الكلام عن الهرم إلاّ لأعطيكم مثلاً للفنّ الذي هو في نظري جدير بالاعتبار، وهو الفنّ الذي إذا ما تحسّستموه أحسستم كأنّكم تنعتقون من الحسّ. وإذا ما حاولتم تحديده قادكم إلى حيث لا حدود. فرأيتموكم شاملين مثلما اللّه شامل. ورأيتموكم أزليّين أبديين مثلما اللّه أزليّ أبديّ. ورأيتموكم خالقين مثلما اللّه خالق. وبكلمة أخرى، هو الفن الذي يكشف فيكم عن صورة اللّه ومثاله. ولا أريد أن امضي بكم إلى متاحف الأرض ومعالمها، ومراقصها ومغانيها، ومسارحها ومكاتبها لأدلّكم في رسوم أيّ الرسامين، وتماثيل أيّ المثّالين، وبناء أي البنائين، وألحان أي الموسيقيين، ورقص أي الراقصين، وتمثيل أيّ الممثلين، وشعر أي الشعراء تلمحون لمثل هذا الفنّ أثراً. فالفن كالطبيعة - مفتاحه في نظر الناظر وسمع السامع وما يتبطّنان عنهُ من خيال. فلا أنتم تستطيعون أن تنظروا بعيني، ولا أنا أستطيع أن أسمع بآذانكم.

أمّا الفنّ الذي لا يطمح من تصوير الطبيعة إلاّ إلى جانب ضئيل - ضئيل جدّاً - من أشكالها وألوانها فمهما دقّ صنعاً لن يعطيكم ذرّة ممّا أنتم قادرون أن تتناولوه مباشرةً بحواسكم. فما رأيت البحر على لوحة رسّام إلاّ كان سخرية بالبحر الذي أبصرتُه بعيني وسمعتُه بأذني. ولا الشمس إلاّ كانت تجديفاً على الشمس التي عرفتها في كلّ قطرة من قطرات دمي. وكذلك الفنّ الذي لا يخرج في تصويره الإنسان عمّا ألفناه فيهِ من عواطف وأفكار، ونيّات وشهوات، وأفراح وأوجاع، وتقاليد وأوضاع، فهو ليس للإنسان أكثر من قفل على باب سجنه، وغشاء فوق الأغشية التي على عينيه، ونير فوق النير الذي على عنقه.

هل منكم من لم يرَ من الناس أشكالاً تضيق بها ذاكرته؟ أو من يجهل أن الإنسان يولد ويموت، وأنّه بين الولادة والموت يدأب ليعيش، فيقاتل ويناضل، ويبغض ويحبّ، ويغضب ويرضى، ويحسد ويطمع، ويمرض ويتعافى، ويتزاوج ويتناسل، إلى كلّ ما هنالك من هواجس ونزعات وتقلبات؟ فأيّ نفع لكم ممّن يصوّر كلّ ذلك بالألوان أو بالحجر أو بالكلام فلا يزيدكم معرفةً بما انتم عارفون؟ ولئن كانت لهُ مقدرة على الوصف والتصوير ليست لكم، فقد تبهركم المقدرة. لكنها لا تخفّف من ثقل

أوزاركم. فلا تعطيكم جناح أمل، ولا تذكي فيكم شرارة إيمان، ولا تدنيكم قيد شعرة من المعرفة بأنّكم صورة اللّه، ومن الإرادة التي تمكنكم من كشف تلك الصورة.

* * *

إذن الفن نوعان: فنّ يبتدئ بالمحسوسات لينتهي منها إلى ما وراء الحسّ، فكأنّه يعالج مساحيق الزمان والمكان عارفاً أن لا نفع منها إلاّ للتخلّص من قيود الزمان والمكان. وفنّ ينشأ في المحسوسات ليفنى فيها، جاهلاً القصد من مساحيق الزمان والمكان. فكأنّه لا يلهو بها إلاّ ليصبح واحداً منها. وممّا يؤسف له أشدّ ألأسف أن أكثر فنون الناس من هذا النوع الذي كنت أدعوه عقيماً لولا اعتقاد راسخ في ضميري أن الحياة أدرى مني ومنكم في تدبير بنيها، وأن لا عقم فيها، فهي كالأرض تحوّل كلّ موت إلى حياة، وكلّ قذارة إلى طهارة، وكلّ عقم إلى خصب.

* * *

ألم أقل إن الإنسان خالق بعين القدرة التي خلقتهُ؟ وماذا عساهُ يخلق غير ذاته؟ فهو في كلّ ما يعمل إنّما يخلق ذاته كما يعرفها في اللحظة التي يعمل فيها. ونحن لو كانت لنا عيون تنفذ من ظواهر الأمور إلى خفاياها لأبصرنا الإنسان كلّ الإنسان في

أقلّ حركة من حركاته وسكنة من سكناته. فما كتب كاتب كلمةً إلاّ كتب ذاته فيها. ولا لبس لابس رداءً إلاّ لبس فيه ذاته. ولا نطق ناطق بكلمة إلاّ نطق بذاته. والذي نخلقهُ في كلّ ما نخلق إنّـما هو صورة اللّه فينا على قدر ما تكون غامضة أو جلية. فمن العسف، والحالة هذه، أن تحاسب كاتباً في ما يكتب، أو شاعراً في ما ينظم، أو رسّاماً في ما يرسم، أو ملحناً في ما يلحن، أو أي رجل في ما يعمل. إذ أنّه حتى لو حاول لما استطاع أن يعمل أكثر أو أقلّ ممّا يعمل ولا غير ما يعمل. وأعمال الناس هي المساحيق والعقاقير السحرية التي يجلون أو يطمسون بها صورة اللّه فيهم. وإذا كان لا بدّ لنا من محاسبة فلنحاسب أنفسنا لا غير. ولنحاسب أنفسنا حساب مَنْ يعرف أنّ مِنَ الأعمال ما يطمس فينا صورة اللّه ومنها ما يجلوها. ولنحاسب أنفسنا حساب من يريدْ أن يعمل الأعمال التي من شأنها أن تجلو صورة اللّه. فلا نعبث بشيء لأن اللّه في كلّ شيء ونحن فيه مع اللّه. ولا نكبر على إنسان لأنّه صورة اللّه. ولا نصغر أمام إنسان لأنّنا مثال اللّه. ولا نقيم الفواصل بيننا وبين الناس أو بين الناس والناس، لأن الناس كلّهم حجارة حيّة في هرم الوجود الإلهي.

* * *

إنّ أجمل الفنّ ليس في المتاحف ومحترفات الفنانين. بل في حياة موحدة الغاية والإرادة، في قلبها إيمان لا يتزعزع بهدف الإنسان الأسمى، وفي إيمانها محبة لا تنضب لكلّ من شاركها وما شاركها في ذلك الهدف، وفي أعمالها وأقوالها، ونزعاتها ونياتها دعامة لذلك الإيمان وزيت لتلك المحبّة.

فإن سئلتم عن أبدع آيات الفن وأغلاها، قولوا: «ضمير لا يُسَخَّر. وجبين لا يُعفَّر. ولسان حليم شكور. وقلب عفيف غفور. وعين لا تبصر القذى. ويد لا تنزل الأذى. وفكر يرى في البلية عطية. وخيال يربط الأزليّة بالأبدية.» وهذه قد تعثرون عليها في من لا علم لهم بأسرار الألوان والألحان والقوافي قبل أن تلمحوا لها أثراً في كبار الشعراء والرسامين والملحنين. وقد تجدونها في الأكواخ الوضيعة قبل أن تجدوها في القصور الرفيعة، وفي الدساكر الحقيرة قبل المتاحف الشهيرة. فلا تخدعنكم الألقاب. ولا تغرنكم الشهرة. ولا تعمينّكم تقاليد الناس الفنية عن الفن الأكبر – فن امتشاق الإنسان من غمد ناسوته، والوصول به إلى ذروة لاهوته.

وإن لم يكفِكم لبلوغ الهدف عمر واحد – ولن يكفيكم عمر واحد – فالزمان يتسع لاعمار، بعدها اعمار. وإن لم

تكفِكم الأرض - ولن تكفيكم الأرض - ففي الفضاء مساكن، بعدها مساكن.

الهـزيـمـة

يوم نادى منادي الحرب في الناس نادت البشرية بالهزيمة. فالعقل منها في عقال، والفكر في خبال، والقلب يُدان بنبضاته، والخيال يُصمى بومضاته، والعدل مدفع ثرثار، والرأفة طيارة تزرع البوار، والحق دبابة تقذف النار، والحب سيف في يد البغضاء، والصدق علك في فم الرياء، والمروءة نعل للخساسة، والطهر خلخال للرجاسة، والحرية طُعم للغوغاء، والإيمان مطية لأحطّ الرغائب والأهواء.

إنّـها لهزيمة شنعاء.

وأشنع ما فيها أنّـها تتبرّج وتتبخّر وتتجبر. فعلى صدرها أوسمة الرجولة والبطولة، وفي يدها بيارق العزّ والفخار، وفي فمها أبواق العدالة والنظام. وأنتم لو نزعتم عنها الإزار لألفيتموها زنجية درديبساً لا تدين بغير دين البطن ولا تغالي بأثمن من الشحم واللحم.

إنّـها لهزيمة سوداء.

يخسر جيش في معركة مركزاً من مراكزه قد لا يكون غير

غابة دغلاء، أو هضبة جرداء، فيعود يجمع فلوله وينظم شؤونه ويجدّد قواه ليسترد المركز الذي أفلت من يده.

وتُغلب أمّه على أمرها في حرب من الحروب فلا تنام على الضيم، بل تروح تعمل على لمّ شتاتها، وترميم ما انهار من ثروتها وعزيمتها، وتبقى تتواصى لعقود وأجيال بأخذ الثأر وترقب بفارغ الصبر يوم غسل العار.

وها هي ذي البشرية المقهورة على امرها. ها هي ذي سلالة ذلك المطرود من وطنه الأصلي - من جنة عدن - تستكن لشنار الطّرْد، وتمحو من ذهنها ذكرى خسارتها، وترضى أن تعيش شريدة طريدة منفية. فلا من يذكّرها بميراثها، ولا من يلمّ فلولها، وينسق صفوفها، ويضرم حماستها، ويبعث إيمانها بقوتها على استرداد الوطن المفقود، ثمّ يقودها إليه بعزيمة لا تُفَلّ ولا تنثني.

كل حرب يشنها الناس في سبيل وطن غير ذلك الوطن، أو غاية إلاّ غاية الانعتاق من غربة المنفى، أو لذة سوى لذة الحظوة بوجه الحقّ، هي هزيمة للناس. وسواء في الهزيمة المنصور والمكسور، والكاسب والخاسر. أيظفر فقير من فقير بغير الفقر؟ أم يكسب غريب من غريب سوى الغربة؟ أم يعود طريد إلى بيته إذا هو فتك بطريد مثله؟

إن تكن الأرض ذلك الفردوس الضائع فما بال أبنائها يقتتلون من أجلها؟ أليس في الجنّة من غبطة الوجود ما يكفي جميع أهل الجنّة؟ أفي الجنّة تفاوت في الحظوظ ومقدرة الاستمتاع، وفيها الحسد والطمع والضغينة؟

وإن تكن الأرض جحيماً فعلامَ يتحارب أهل الجحيم؟ أطمعاً باغتصاب جحيم يكون «أجحم» من جحيمهم؟ أفي الجحيم درجات ومراتب؟

أو تكن الأرض نصفها جنّة ونصفها جحيم فأيّهما الجنة وأيّهما جهنم؟ ومن ذا يستطيع إذا ما حفن حفنة من التراب أن يفصل بعضها عن بعض ثمّ ان يقول: هذا تراب الجنّة وذاك ثرى جهنم؟

إنّما الأرض جنة للفاهمين، وجحيم للجاهلين، فيا لهزيمة الجاهلين يقتنصون الفهم بالشفار والقنابل!

يا لهزيمتهم يسوقون أبناء الأرض إلى حتوفهم سَوق الأنعام آملين أن تنبت لهم من عظامهم شجرة الجنة المثلى – شجرة الحياة، وأن يستقطروا من دمائهم حلاوة الغبطة الفردوسية!

يا لهزيمتهم يجعلون من الأرض جحيماً يقاتل جحيماً، ثمّ يأملون أن يسفر القتال عن سلام النعيم!

لقد أفلحت هذه الحرب - أكثر من أي حرب تقدمتها - في مسخها الإنسان شيطاناً. فهو في أعالي الجو لا ليسكب من هنالك بلسم الحرية في الأعالي على إخوانه الناس بل ليمطرهم وابلاً من الشقاء والفناء. وهو في اعماق البحار لا ليكشف للناس أسرار الأعماق وحلاوة السكينة في الأعماق بل ليقري بلحومهم الحيتان ويدفن آمالهم في الأوحال. وهو ينادم الأثير ويسامره لا ليكسب منه خفة في الروح ورحابة في الصدر بل ليشبع نهمه إلى تسقّط الأخبار عن معارك تدور، ومدن تبور، وخطوط تحرق، وأنفس تزهق. فواخجل الناس من الأعالي وما فيها، والأعماق وما فيها، والأرض وما في راحتيها!

واخجلهم من الأثير يحمل إليهم في كلّ طرفة عين انوار الشموس والكواكب، وأخبار النسائم والرياح، وزغاريد العصافير، وطيب الأزهار، وشقشقة البحار والأنهار، فيأبون أن يسمعوا من أخباره غير أخبار الموت والدمار!

هذا الأثير الذي ينقل إليكم ما أقول لا يزال يموج بصوت «يَهْوَه» يوم خاطب قايين قائلاً: «أين هابيل أخوك؟ إن صوت دماء أخيك يصرخ إليّ من الأرض..» وبصوت «الناصري» ساعة انتهر تلميذه الذي قطع بسيفه أذن عبد رئيس الكهنة: «اردد

سيفك إلى غمده. لأن كلّ من يأخذ بالسيف يهلك.» وبصوت «ابن عبد اللّه» يحذّر الناس من السعي وراء الخلاص من غير أبوابه: «إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.»

أفما للناس في أرواحهم من مذيع؟

أيقتتلون في سبيل اقتسام الأرض ولا يسمعون الدماء الصارخة من الأرض؟ أما علمتهم الأرض حتى اليوم أنّها لا تتقسم، فهي للكل لأنّها أمّ الكل، وأن من حاول تقسيمها ما أفلح إلاّ بتقسيم نفسه؟

أيقيمون العدل بالسيف ولا يعلمون ان ما يقوم بحدّ السيف يهوي بحدّ السيف، وأن من أهلك بالسيف هلك بالسيف لا محالة؟

أيطمعون بالوصول إلى السعادة إذا هم غيروا ما بالأرض من تخوم ومعالم ولكن من غير أن يغيروا ما بأنفسهم؟

حقّاً إنّهم لفي ظلام يخبطون!

لو أن الحرب كانت هدر دماء، وتخريب بلدان، وتبذير ثروات لا غير، ما كان أيسرها خسارة. ولكنها شكيمة في فم الإنسانيّة، ورماد في عينيها، وغلّ في عنقها، وسلاسل في رجليها، وسدّ منيع في وجهها دون وطنها الإلهي؛ ولكنها هدر

إيمان الناس بالناس، وبخالق الناس ومدبّر الناس، وتخريب عزيمتهم على استرداد فردوسهم المفقود، وتبذير قواهم التي تفوق إدراك عقولهم على تخبيل عقولهم.

إنّه لمشهد رائع بفظاعته ان ترى أهل الأرض قد تجندوا على بكرة ابيهم - مثلما تجندوا في هذه الحرب - وراحوا يبطشون بعضهم ببعض، ويمعنون في الأرض تدميراً، ناشرين الويل والعدوان في كلّ مكان. فالذي لا يحارب منهم بالحديد والنار يحارب بالمكر والاحتكار. والذي لا يغتاله الموت والوجع يجندله الذعر والجشع. فما أشدّ هولها كارثة، وما أقبحها هزيمة - هزيمة الإنسان من وجه أعدائه الألداء، وتنكيله بإخوانه الذين هم أعوان له على أعدائه وأنصار!

وهل من أعداء للإنسان إلاّ الجهل والخوف والكفر والألم ثمّ الموت؟ وهل الحرب سوى نصرة الجهل على الفهم، والخوف على الطمأنينة، والكفر على الإيمان، والألم على اللذة، والموت على الحياة؟ فإلى اليوم ما ظفر الناس من حروبهم بغير الهزيمة. فكانوا الخاسرين وكان أعداؤهم الرابحين. وفي مستطاعهم ان يعودوا من الهزيمة بالغنيمة، وأن يقلبوا انكسارهم انتصاراً لو أنّهم يعلمون، ولحرب غير هذه الحرب يتجندون.

فما أجملها حرباً تتجنّد لها البشرية بأسرها، بكلّ ما فيها من قوى لا تحدّ وغنى لا يوصف، فتمشي جحافل تدفع جحافل، وقلوباً تساند قلوباً، وأفكاراً تناصر أفكاراً، وأرواحاً تؤازر أرواحاً وعضلات تشدّ عضلات، إلى أوجار الجهل فتمحوها، وحصون الخوف فتدكها، ومغاور الكفر فتمحقها، ومعاقل الألم فتقوضها، وبذور الموت فتفنيها.

ما أقدسها حرباً تشنها البشرية المجندة على الفقر وذله، وعلى الفحش وخزيه، وعلى السيادة وادعائها، وعلى الأثرة وخيلائها.

بل ما أجداها حرباً تثيرها تلك الجحافل على كل صحراء فتخضل، وكل قفر فيؤهل، وكل ما استعصى من مسالك البر والبحر والجو فتذلله، وكلّ ما تحجّب من كنوز الأرض فتميط عنه الحجب، وتَستّر من اسرارها فتهتك عنه الستائر.

إذ ذاك لعادت عدن إلى الأرض. ولِـمَ لا تعود وهي منذ البدء من الأرض وللأرض؟ ولِـمَ لا تكون الأرض جنّةً ونعيماً؟

ألا فلينهزم أبناء الهزيمة، فمصيرهم العار والاندثار، وأما الذين بهم حنين إلى الوطن الذي لا يَقهر فلا يُقهر، ولا يَغتصب فلا يُغتصب، فلهم أقول: اثبتوا في الميدان. لئن تكن حربكم

أطول الحروب وأقساها فغلبتكم ستكون أجمل الغلبات وأسماها.

القصر والمعمل

على ضفّة نهر شوّهتها المداخن معمل للذخائر الحربيّة أفنى من السنين قرناً وبعض القرن ونال شهرة واسعة حيث لا تزال للحرب شهرة. وقبالة المعمل، على الضفة الثانية، رابية خضراء مصونة بالحديد. وعلى الرابية قصر حسدته القصور.

وبين المعمل والقصر صلة الوالد بالولد. فالمعمل أنجب القصر وما انفكّ يعطف عليه ويغذيه. والقصر ما عقّ يوماً والده، وما برح يسوسه سياسة الولد البار لأبيه.

لقد كان القصر لثلاث سنوات خلت قبلة الزائرين من ذوي اليسار والأناقة والوجاهة، يأتونه من كل حدب وصوب، فيجد فيه كلّ هاوٍ هواه من أنس وطرب، وفنّ وأدب، ومأكل ومشرب، ولهو وعبث. ففي الاسطبلات أكرم الجياد محتداً، وأعرق الكلاب نسباً، وفي الأقفاص أرخم الطيور صوتاً، وأجملها شكلاً، وأندرها جنساً. وفي النهر أصناف من الزوارق للنزهة. ومن حول القصر أحواض للأسماك والسباحة، وساحات لشتى

الألعاب الرياضيّة. وفي داخل القصر من نفيس الرياش والتحف ما يجل عن الوصف والتقدير.

أما اليوم فالاسطبلات خالية من الجياد والكلاب. والأقفاص لا ريش فيها ولا صوت. والأحواض لا سمك ولا ماء. وساحات الملعب تكسوها الأعشاب. وليس في النهر عند أسفل الربوة زورق واحد يجري بالكهرباء؛ والقصر لا ينتفض فيه وتر، ولا تُسمع قهقهة، ولا يُقرع منه باب. فقد طار منه الأنس يوم طار منه صاحباه إلى حتفهما ؛ فانتقل من بعدهما، مثلما انتقل المعمل، إلى وحيدهما وهو لا يزال إلى العشرين أقرب منه إلى الثلاثين.

وهذا الوريث ما أبقى على شيء من آثار البذخ والترف سوى سيارة وزورق. فالسيارة تحمله في كلّ صباح ومساء من القصر إلى أسفل الربوة ومن أسفل الربوة إلى القصر، والزورق يعبر به النهر الواسع إلى المعمل ومنه، وهو يقود الاثنين بيديه.

أما المعمل فقد زاد الوريث في عدد عماله عشرين ألفاً، وفي إنتاجه وأرباحه عشرة أضعاف. فكان كلّ من عرفه يعجب لفطنته وحنكته في إدارة أشغاله على حداثة سنّه وشذوذ في أخلاقه وأطواره. فهو لم يكتفِ بأن كمّ فم القصر الغرّيد، وقصّ جناحيه، وسمل عينيه وحجبه عن الناس، بل إنّه جرّده من أنفس تحفه

ورياشه، وصرف كلّ ما كان فيه من خدم وحشم ما خلا واحداً اسمه شمشون. فقد كان شديد التعلّق به إلى حدّ الوله. وما كان يرضاه أن يخاطبه يوماً بقوله «يا سيدي» بل بقوله «يا بني».

وشمشون رجل توسط العقد السابع من عمره، لكنه ما برح نشيطاً، وهو من بساطة الفكر، وطهارة القلب، ونقاوة الضمير، وعفّة النفس، والتمسك بالتقوى على جانب عظيم. وقد ربي يتيماً في خدمة الشاب ووالديه وجديه من قبله. وشمشون ما أحبّ أحداً من أفراد الأسرة محبّته لسيده العازب الفتيّ، فقد كان يخشى عليه حتى نفسه ويعبده من بعد ربّه.

فعل الشاب ما فعل بقلبه حياة القصر رأساً على عقب، وشمشون ما اضطرب يوماً ولا جزع. أمّا في الأيّام الأخيرة فقد راح يؤلمه أشدّ الألم هزال متزايد في جسم سيده وحزن عميق أصم في عينيه وحول شفتيه. فلا هو بقادر على سبره ولا الشاب يبوح له به جرياً على عادته في كشف مكنونات نفسه لخادمه الأمين. والذي زاد في قلقه وارتباكه أن سيده التفت إليه ذات ليلة وهو منصرف إلى النوم وقال له بصوت كسير:

«شمشون، يا أبتِ شمشون، لقدِ سمنتُ حتى أكاد أنشقّ.»

فأجابه شمشون وقد ظنّه مازحاً:

«تبارك اللّه! لقد سمنتَ إلى حدّ أني لو نفخت عليك لطرتَ في الهواء. أتشكو مرضاً يا بني؟»

- أجل يا شمشون. إن بي لمرضاً قتّالاً. وهو مرض الذين ما بهم مرض.

- ألعلّك منيت بخسارة كبيرة في أشغالك يا بني؟

- بل منيت بأرباح كبيرة يا شمشون.

- إذن ما بالك تذوب وتذيبني معك؟

- أوّاه لو أدري!

- ألعلّها الحرب وأخبار الحرب تعبث بأفكارك وراحتك؟

- شمشون، يا أبتِ شمشون، صلِّ من أجلي.

فكاد شمشون يجزم بأن الشاب أصيب بمس من الجنون. لكنه صلّى بحرارة فائقة متوسّلاً إلى اللّه أن يرفّه عن سيده وأن يكشف له سرّ الكآبة الممسكة بخناقه.

ونام شمشون نوم الأبرار. وقبيل الفجر سمع صوتاً يقول له: اكتب يا شمشون!

فانصاع شمشون إلى الصوت انصياع من لا فكر له ولا إرادة، وتناول قلماً وقرطاساً وأخذ يكتب والصوت يملي عليه:

«أيها السارقون نوم الحزانى كيف تهجعون؟

أيها اللابسون عُري اليتامى كيف تدفأون؟
أيها الكارعون ريّ العطاشى كيف تُنقعون؟
أيها الآكلون خبز الجياع كيف تشبعون؟
أيها الراضعون ثُديّ الثكالى كيف تسمنون؟
أيها السائقون ظعن المنايا كيف تهزجون؟
أيها المستحمّون بالدم الحي كيف تطهرون؟
أيها المدلجون، إذ يُقبل الفجر، أين تدبرون؟
أيها البائعون سمّ الأفاعي هل سوى السم تربحون؟»

وانقطع الصوت. فانتفض شمشون كمن يفيق بغتة من حلم. ولشد ما أذهله أن يرى ورقة في يده وأن يقرأ ما فيها فيجده مكتوباً بخطّ يده، حتى خُيّل إليه أنّه، هو أيضاً، قد خولط في عقله.

وكان الليل قد تلاشى. فهرول شمشون إلى غرفة سيده وقصّ عليه ما جرى ودفع إليه بالورقة قائلاً:

«لقد صليت يا بني. ولعلّ هذا جواب صلاتي. ولكنني ما فهمت منه شيئاً.»

ما كاد الشاب يقرأ ما في الورقة حتى امتقع لونه، واعترته قشعريرة سقطت معها الورقة من يده. فانحنى شمشون ليرفعها

لكن سيده شدّه بعنف من ذراعه وحملق فيه طويلاً ثمّ قال بصوت مرتجف:

«شمشون، شمشون، من علّمك التدجيل ومتى؟»

فصعق شمشون، وانعقد لسانه، وجف حلقومه، وأظلمت عيناه، ودار رأسه فارتمى على الأرض كأنّه الشلو، وعندها ذعر الشاب وأدرك سوء ما فعل. فانحنى فوق خادمه يفرك يديه ويقبلهما ويناديه:

«إليّ يا شمشون، يا أبتِ شمشون. لقد فهمتُ. لقد فهمت.»

وما زال به حتى عاد إليه وعيه. ولكن شمشون ما عاتب مولاه بكلمة.

بل انطلق في الحال يعدّ له الحمّام جرياً على عادته في كل صباح ليعود ويهتم بفطوره. وفيما هو منهمك بإعداد المائدة إذا بسيده يناديه من الحمام فأسرع إليه، وما دخل الحمّام حتى جمد مكانه.. فقد وجد الشاب واقفاً بجانب المغطس وبدنه العاري مصبوغ بلون الدم. ورأى الماء في المغطس كأنّه الدم. وتبادر إلى ذهنه أن سيده قد انتحر بقطع شرايين يده. لكنه ما عتم أن سُري عنه عندما التفت إليه الشاب وسأله بصوت لا خوف فيه ولا تأنيب:

«ما لهذا الماء أحمر كالدم يا شمشون؟»

فأجابه: «لقد كان صافياً كالبلور يا بني عندما أطلقته في المغطس.»

– وكان زلالاً عندما غطستُ فيه. فمن أين هذا اللون؟ من أين هذا الدم؟

فانكب شمشون على المغطس يفرغ منه الماء ثمّ يغسله. وأطلق الماء ثانية فإذا به أصفى من حدقة الطفل. ثمّ عاد إلى عمله. وما هي إلاّ دقيقة أو دقيقتان حتى دعاه سيده ثانية. وإذا بالحادث الأوّل يتكرّر. ومن بعد أن تكرّر ثلاث مرّات متوالية يئس الشاب من حمامه وارتدى ثيابه. وانطلق إلى المعمل من غير أن يتناول لقمة واحدة ممّا كان شمشون قد أعده له. وكل ما قاله لشمشون قبل انصرافه:

– لقد فهمت يا أبتِ. لقد فهمت.

وبقي شمشون نهاره في ذهول وبُحران. وكان يرتقب أوبة مولاه بفارغ الصبر لعلّه يميط له اللثام ولو عن جانب صغير من الأسرار التي تكتنفه من كلّ جانب. لكن غيبة السيد طالت أكثر من المألوف بكثير. فطالت معها هواجس شمشون وأوجاعه.

وانتصف الليل أو كاد عندما عاد الشاب فوجد شمشون

في انتظاره عند طرف الحديقة المطلّ على المعمل. وكان الليل دافئاً وصافياً. والقمر يتهادى بين النجوم. فحيّا الشاب شمشونَ تحية كلّها شوق وعطف وفرح. واقتاده إلى مقعد قريب حيث جلس إليه مطوقاً عنقه بذراعيه ومسنداً رأسه إلى كتفه. ثمّ خاطبه هكذا:

- أما تراني سمنت منذ الصباح يا شمشون؟

- حقّاً يا بنيّ إنّك الآن غيرك في الصباح.

- خير الدواء أن تهتدي إلى باعث الداء فتتلافاه. وبمعونتك قد اهتديت إلى بواعث أدوائي. فهنئني يا شمشون.

- الحمد للّه يا بنيّ!

- شمشون، يا أبتِ شمشون، إذا أنت اصطنعت خنجراً ثمّ بعته مني عالماً أنّني سأقتل به رجلاً ما، وقتلت به ذلك الرجل، أفلا تكون شريكي في القتل؟

- من غير شكّ يا بنيّ.

- إذن كنتُ على صواب في ما فعلت.

- وماذا فعلت يا بني؟ أتعني أنّك قتلت أحداً؟

وبغتة ارتجّ القصر، واهتزّت الأرض، وعصف الجو بدويّ كأنّه الزلزال. وإذا بالأفق فوق الضفّة المقابلة يشتعل ويموج بالنار،

والانفجار يتلو الانفجار، واللهيب والدخان يصعّدان في الفضاء. فما كان من شمشون إلاّ أن خرّ ساجداً في الحال وأخذ يصلّي وكأنّه المحموم يهذي: «ربي وإلهي. المعمل، المعمل. يا للخراب. يا للخسارة. ربي وإلهي. لنهرب. اهرب من الشظايا. المعمل يا بني!»

لكن الشاب أخذه بكلتا يديه ثمّ لفه بذراعيه، ومن بعد أن هدأ روعه قال له:

«أيليق بنا يا أبت أن نطبخ للناس ما نأبَى أن نذوقه؟ كيف ترجو أن تبتاع بالسم الزعاف شهداً شهيّاً؟ لقد انهرق السم فما أحلاها خسارة!»

قال ذلك ووثب إلى باب القصر فلصق عليه الورقة التي تناولها من الشيخ في الصباح ثمّ عاد إلى شمشون فأخذه وانحدر به إلى أسفل الربوة وهناك ركبا الزورق الكهربائي وانطلقا نحو منبع النهر. ومن غير أن يلتفت إلى الوراء رفع الشاب عينيه إلى السماء وقال:

«تقبّل اللهمّ قرباني!»

فزكى شمشون صلاة مولاه بقوله «آمين» وأضاف في قلبه: «ترى أيّنا المجنون؟»

وانبلج الصبح عن أنقاض المعمل الشهير والنار لا تزال تلهو بيقاياها، وعن زورق صغير يجري حثيثاً نحو أرض محجوبة إلاّ عن التائهين.

هديّة الهم

عند انبلاج الفجر وقف الهمّ على رأس أعلى قمة في الأرض، وكانت الأرض لا تزال في شبه إغماءة توشك أن تنتهي بثورة من الهستيرة. ومن بعد أن جال بطرفه في كلّ ناحية أخذ يخاطب نفسه ويقول: «مَنْ مثلي؟ أي سلطان كسلطاني وأيّ ملك كملكي؟ ما من بقعة في الأرض إلاّ لي فيها أعلام تخفق وجيوش تزحف من نصر إلى نصر. ما من جمجمة إلاّ لي في تجاويفها وتلافيفها ألف وكر وألف وجار. ما من قلب إلاّ لي من دمائه أمرأ الشراب ومن لحمه أطيب الغذاء. لي في كلّ فم لسان، وفي كلّ عين إنسان، وفي كلّ قصعة ملعقة، وعلى كلّ كأس شفة، وفي كلّ ثوب إبرة وخيوط.

«في كلّ بيت لي بيوت. في كلّ معبد لي معابد. في كلّ معهد لي معاهد. كلّ فراش فراشي. كل لحاف لحافي. كلّ وسادة وسادتي.

«الرياح مطاياي، والنسائم رسلي، والكواكب قناديلي، والبحار مضخاتي، واليابسة حقلي.

«الخوف محراثي، والرجاء نيري، والجوع منخري، والناس ثيراني، والموت بيدري.

«الليل ليلي والنهار نهاري. كلّ الزمان زماني. كلّ المكان مكاني. في البداية أنا. وفي النهاية أنا. أنا الأزل وأنا الأبد.

«مَن مثلي؟ مَن مثلي؟»

وانتفخ صدر الواقف على القمة واستطالت قامته حتى لمس برأسه السماء. فما كان يبصر غير ذاته، ولا كان يسمع غير ذاته.

وبقي الهمّ يسكب لنفسه رحيق العظمة في أكواب الفجر ويكرعها الكوب تلو الكوب حتى كاد يسكر ويذهل عن نفسه. لكن دفقة قوية من النور جعلته ينتفض ويصحو من سكرته وينقلب عن تأمّلاته الأولى إلى تأملات سواها. ذاك أن الشمس أطلّت من وراء الأفق البعيد. وبين الشمس والهمّ عداوة خفية تأصلت منذ كانت الشمس وكان الهم.

فالتفت الهمّ إلى عدوته اللدودة وخاطبها هكذا:

«أيتها الشمعة الغريرة الضريرة. أنت وحدك مبعث الهمّ للهمّ. فلولاك لعاش الهمّ بغير همّ. أنت وحدك تحاولين كشف ما أستر وجبر ما أكسر. إلاّ أنّك عبثاً تحاولين. فهأنذا أتغلغل في كلّ ذرة من ذرات ضوئك، وأجعل من كل حبل من حبالك أحبولة

من أحابيلي. فحيثما كان نورك كان ظلّي. ما أنتِ غير سفينة في بحري أشحنها بكلّ ما أشاء من أصناف الهموم.

«لكم ردعتك عن الحرب فما ارتدعتِ. ولكم رددت نبالك إلى صدرك وحرقت قسيّك في حضنك. فما كنت عن غيّك ترعوين، ولي بالنصر تعترفين. ما دمت تريدينها حرباً إلى النهاية فخذيها حرباً إلى النهاية.»

إلاّ أن الشمس ما تكرّمت على الهمّ لا بكلمة حرب ولا بكلمة سلم، وسارت بموكبها الناري في السبيل الذي ما حادت عنه يوماً منذ كانت شمساً.

وكأنّ الهمّ شقّ عليه ألاّ تبدي الشمس أقلّ اكتراث لصداقته أو عداوته، فحرق بأسنانه وقعد القرفصاء وأخذ رأسه بين كتفيه وضغط بهما عليه ضغطاً شديداً ثمّ تنهد وقال:

«لا هي تستريح ولا أنا أستريح. وها هي ذي الأرض وكل ما عليها تستريح فترة وتعمل فترة. فحياتها غفوة ثمّ صحوة. هدأة ثمّ وثبة. حرب ثمّ سلم. إلاّ إيّاي. أنا وحدي لا أعرف الراحة لا في الليل ولا في النهار، لا في الصيف ولا في الشتاء. فأنا مطالب بكلّ بهيمة وإنسان، وبكل زحاف وذي جناح. أفما لجهادي نهاية؟ أفما حقّ لي أن أستريح؟ أفما آن لي أن أستريح؟»

ونمت فكرة الراحة في رأس الهمّ وتضخمت. فرأى نفسه مغموط الحق، منهوك القوى. وأحسّ سآمة في روحه، وتفكّكاً في مفاصله. فتمدّد على الأرض بطوله وعرضه، وتنفس الصعداء، وسكت هنيهة ثمّ هتف من أعماق قلبه:

«ما أطيب الراحة من بعد العناء! حقّاً إنّ في الراحة لمنتهَى الغبطة.»

وأغمض الهمّ عينيه وغاص في لجة من السبات العميق. وعندما أفاق من سباته فرك عينيه والتفت حواليه فإذا الشمس في قبة الفلك، وإذا الأرض تغمرها سكينة ولا سكينة اللحود. فلا نملة تدبّ، ولا نحلة تطن، ولا عصفور يغني، ولا ثور يخور، ولا قطة تموء، ولا عامل يعمل، ولا دولاب يدور، ولا رِجل تسعى. لا مَن يأكل ولا مَن يشرب، ولا من يقاتل ولا من يصالح. حتى الأسماك في أعماقها لا وشوشة ولا حراك. وليس سوى البحر يهدر، والأنهار تكرّ، والنسمات تتهادى في السهول والأودية وعلى رؤوس الجبال. فذعر الهمّ من هول ما رأى، وصاح مؤنّباً نفسه:

« ويحي أنا الشقي! ماذا فعلت بنفسي وبمملكتي؟ أين تاجي وصولجاني؟ أين عزّي وجبروتي؟ ألا ليتني ما طلبت الراحة

ولا عرفت الراحة. إذن لما كانت تلك الشمعة الغريرة الضريرة تنظر إليّ الآن من شاهق وتشمت بانخذالي، وتسخر من ضعفي، وتقول في قلبها: «لقد اندحر الهمّ. لقد مات الهم. لقد تلاشت مملكة الهم مثلما تتلاشى سحابة في تموز.»

«رويدك أيتها العانس المتبرجة. فستعرفين في الحال أن الهمّ ما مات، وأنّ مملكته ما تلاشت. لكم عيرتني بمحبة الخليقة لك وكرهها لي. وهأنذا أريك الآن بهتان ما تزعمين. إلاّ أنّك عمياء لا تبصرين.»

ونفخ الهمّ نفخة لا غير. وإذا بالأرض تموج بالحركة وتعجّ بالأصوات. وإذا الدواليب تدور، والمدافع تزأر، والأعراس تواكب المآتم، واللحود تسابق المهود، والزفرات تعانق القهقهات، والبسمات تسبح في بحور الدموع، والناس والبهائم في سكرة من الأخذ والرد والسكون والدوران.

إذ ذاك تبسطت أسارير الهمّ ورقصت أحشاؤه حبوراً وخاطب نفسه قائلاً:

«حقّاً إنّها لضريرة تلك الشمعة التائهة في الفضاء. أفما ترى مقدار تعلّق عبادي بي؟ أفما ترى كيف أنّهم يسكنون إذ أسكن ويتحركون إذ أتحرّك؟ ففي يدي حياتهم. وفي يدي مماتهم.

وهأنذا أنحدر إليهم لأنعم بعظيم محبتهم لي وعرفانهم لجميلي.»

وانحدر الهمّ من القمّة وطاف في الأرض من المشرق إلى المغرب، ومن القطب إلى القطب. فما كان يسمع غير ألسنة تلعنه، ولا كان يرى غير شفاه تتفل عليه، ووجوه تعبس في وجهه، وأيدٍ ترفع الحجارة لترجمه. ما حاول أن يتودّد إلى بهيمة إلاّ رفسته، أو أن يصافح إنساناً إلاّ لطمه، أو أن يطرق باباً إلاّ سلقه أهل البيت بالسباب والشتيمة. وكان أقسى وأفظع ما سمعه من الناس قولهم: «أثقل من الهمّ على القلب...»

فحار الهمّ في أمره أيّما حيرة. وراح يفكر في نفسه:

«إن شأني مع الناس لغريب عجيب. أحقّاً أنّني ثقيل؟ وكيف أثقل على الناس وأنا مبعث الحركة والحياة فيهم؟ أأمشي في لحومهم ودمائهم وعظامهم، أأسبح في أحداقهم، وأسرح في آذانهم، وأمرح في أنوفهم، وأكون - مع ذلك - ثقيلاً عليهم؟ ولولاي لا حركتهم حركة ولا سكونهم سكون. ولولاي لما أبصروا ما يبصرون، ولا سمعوا ما يسمعون، ولما شموا ما يشمون.

«إن حظي من الناس لحظّ منكود. بل إن حظي من جهادي لحظّ الخاسرين لا الرابحين، وحظّ المغلوبين لا الغالبين.»

وتمادى الهمّ في أفكاره السود. فضاق صدره، وأظلم بصره، وكاد يلقي سلاحه. ولكن خاطراً جديداً خطر له. وذلك أنّه إن لم يظفر من الناس بمحبتهم فهو لا شكّ ظافر بشفقتهم.

وتنكر الهمّ في سراويل شيخ رضضته الفاقة والسنون. وراح يستجدي أكفّ الناس. فما كان منهم من جاد عليه بكسرة خبز أو بجرعة ماء. بل كان كلّ من رآه أغلق الباب بعنف في وجهه وصرخ بأعلى صوته: اغرب عني. لا بارك اللّه في سحنتك التي كأنّها الهمّ بعينه. إن همومي بدونك لأكثر من نبات الأرض.

وأخيراً انكفأ الهمّ على نفسه، وأدركه قنوط عظيم. ومشى بخطوات متثاقلة نحو البحر. وهناك جلس على الشاطئ وراح يتردّد ما بين الانتحار والانتقام. وفيما هو كذلك إذا به يبصر آدميّاً مقبلاً نحوه. فحوقل وغمغم وأراد أن يختبئ من وجهه. لكن الآدمي أدركه قبل أن ينهض من مكانه وبادره بقوله:

«السلام يا عمّاه.»

فذهل الهمّ من مثل تلك التحية تأتيه من آدمي، وأراد ألاّ يشرفها بجواب. ولكنه، بعد تفكير، عاد فقال:

«أهمّ وسلام؟»

«أجل. همّ وسلام – وما همّك يا عمّاه؟»

«همّي أنّني الهمّ.»

«أنت لا ريب ماجن. أتكون الهمّ وتهتمّ؟»

«كيف لا أهتم وقد طوفت في المشارق والمغارب فلم أجد من تعطّف عليّ بكلمة حلوة؟ فأنا ممقوت من الناس وشريد طريد في الأرض. وأنت مَن تكون أيّها الآدمي؟»

«أنا الذي غلب الهمّ بالهمّ. فللهمّ فضلٌ عليّ كبير.»

«إن ما تقوله أيها الآدمي لغريب عجيب. وإن فيه لهمّاً جديداً للهمّ. فمتى وكيف غلبت الهمّ؟»

«غلبته صباح اليوم عند شروق الشمس.»

«وهذا أغرب وأعجب. أفما أشرقت الشمس عليك قبل اليوم؟»

«بلى. ولكن همومي كانت تحجبها عني. أمّا اليوم فقد جمعت كلّ همومي في بوتقة واحدة ورحت أسحنها وأمزجها إلى أن جعلت من مزيجها همّاً واحداً، هو همّ الانعتاق من الهم. وإذ توحدت همومي توحدت قواي. وإذ توحدت قواي أصبح الهم لي معلماً حكيماً وكريماً وكان من قبل جلاداً أثيماً ولئيماً.»

«وماذا علّمك الهمّ؟»

«علّمني ألاّ أهتم بما لا أعرف، فاهتمامي به كاهتمام شعرة

في رأسي بما يعمله دماغي وقلبي وكلّ ما في جسدي. وذاك هو الجهل بعينه. ثمّ علمني ألاّ أهتم بما أعرف، فاهتمامي به كاهتمام رجلي بالمشي والوقوف، وجفني بالاغماض والانفتاح، وتلك هي البلاهة بعينها. وعندما رحت اقيم حدّاً بين ما أعرف وما لا أعرف وجدتني أحيا بما لا أعرف لا بما أعرف. وكان آخر ما علمني الهمّ أن أعمل عملي من غير أن أهتمّ بالأسباب ولا بالنتائج. فهي متشابكة تشابك الخيوط في الثوب. وليس يعرفها إلاّ الذي غزلها ثمّ حاكها. وعندها قال لي الهمّ:

– ههنا أولى الدرجات في سلم المعرفة. من يطأها يوماً فليكن واثقاً من بلوغ الأخيرة.

«وها أنا قد وضعت رجلي على الدرجة الأولى، فأشرقت الشمس في قلبي وإذ أشرقت الشمس في قلبي لمحت الدرجة الأخيرة، وإذ لمحتها أدركت أنّني بالغها في النهاية. فمن لمح آمن. ومن آمن عرف. ومن عرف صبر. ومن صبر ظفر.»

وكان وجه الآدمي مشرقاً بفيض من السنا وفي صوته زهو الغلبة.

فما أطاق الهمّ ذكر الشمس والإيمان والصبر في نَفَس واحد. وأغمي عليه. وكان الظلام قد أرخى سدوله، فظنّ الآدمي

أن النعاس غلب محدثه لفرط ما به من هرم وضعف وهزال. فحمله على ظهره إلى بيته. وهناك أضجعه في أحسن سرير عنده وانطلق إلى فراشه. ولما استفاق في الصباح وجد بجانب سريره كأساً من الذهب الإبريز مترعة بنور كأنّه نور الشمس وقد خُطت عليها بأحرف نارية كلمة «الطمأنينة» ومن تحتها هذه العبارة:

«هدية الهمّ إلى الذي عرف قيمة الهمّ.»

«أما الضيف فما عثر له على أثر في البيت غير تلك الكأس.

البيادر

لعلّ أجمل أيّام الصيف في المناطق العالية من لبنان هي أيام السنابل والمناجل والنوارج والمذاري، - أيام الحشر والمآب وتصفية الحساب. إذ الأرض فوّارة من البركات، والسماء حدقة ملؤها العطف والحنان، وحلفاء الأرض والسماء، من بشر وبهيمة، في ذهول عن كلّ شيء ما خلا البيادر، وفي حركة لا تهدأ ما دام في أبصارهم نهار، وحركاتهم تنبعث من البيادر وإلى البيادر تنتهي. فكأنّ البيدر إذ ذاك المحور الذي تدور عليه كلّ أعمالهم وأفكارهم ورغباتهم.

وأي عجب في ذلك وعلى هذا المنبسط الضيق المستدير من التراب الذي يدعونه بيدراً، قد تكدّست من حياتهم أربعة فصول بأعصابها المرضوضة، وعرقها المتجمّد، وآمالها الجائعة، ومخاوفها النهّاشة، وصلواتها الخضر، وتجاديفها اللفاحة، وشكوكها الشائكة، وإيمانها الكفيف؟

بلى، أي عجب في ذلك وكلّ بيدر عالَم يعجّ بالأسرار

والعجائب؟ ففي كلّ سنبلة على كلّ بيدر، بل في كلّ حبة من كل سنبلة فصل عجيب غريب من رواية الأرض الغريبة العجيبة - رواية اللحد يغدو مهداً والمهد يصبح لحداً عاماً تلو عام، وجيلاً بعد جيل، فلا ذاك يفنى في هذا، ولا هذا يتلاشى في ذاك. فكأنّ الاثنين وحدة لا تتجزّأ. والقدرة التي تعمل في الواحد هي عينها التي تعمل في الآخر بدون انقطاع. فلا تُميت إلاّ لتُحيي. ولا تُحيي إلاّ لتُميت. أما هي فلا تحيا بما تحيي. ولا تموت بما تميت. بل تتسامى أبداً إلى ما فوق الحياة والموت.

أما كانت الأرض لأشهر خلت جدثاً فسيحاً أودعه حلفاءُ الأرض بذارهم مكفّناً برجائهم؟ وها هو ذلك الحدث قد ردّ موتاه كائنات حيّة - وردّها الضّعف عشرات الأضعاف. فيا له من جدث وفيّ سخيّ! ويا له من ساحر ينسج من الأكفان حُللاً ملكية فيها الجمال، وفيها العافية، وفيها الرجاء وقد بلغ أشدّه فأصبح يقيناً متيناً!

إني لأشفق على من يمرّ ببيدر مفروش بالسنابل فلا يبصر عليه غير سنابل. أو ببيدر يدور عليه نورج يجرّه ثوران فلا يرى غير نورج يجرّه ثوران. أو ببيدر عليه كومة من الحَبّ والتبن وقد راحت المذراة تلقّمها الهواء، فلا يبصر غير كومة من تبن وحبّ

ومذراة تنهبها صعوداً وهبوطاً. فللبيادر ظاهر وباطن مثلما لكلّ شيء. ومن فاته التمتّع بما تبطّنت عنه البيادر فاتته متعات للروح أين من نعومتها خشونة الظواهر. وإني محدّثكم عن بعض ما متّعتني به البيادر من سحرها وجمالها وأسرارها.

ها نحن أولاً في ليلة من ليالي آب – ليلة في أنفاسها وَجد، وفي عيونها أقمار ومجرّات وثريات، وفي قلبها صحائف انطوت على كلّ ما حفظته ذاكرة الزمان.

السنابل مفروشة على البيدر في انتظار النورج في الصباح. وأنا قد افترشت بعضها، وتدثرت ببعضها، ورحت أدغدغ بأناملي ما جاورني منها، فتارة أرفعها إلى فمي فأقبّلها، وأخرى أدنيها من أنفي فأشمّها، وطوراً أمرّ بها على جبيني وأجفاني. وما أنفك أداعبها حتى أُحسني كواحدة منها. أجل أنا كذلك سنبلة على بيدر.

وإذا السنابل أكثر من نبيتات هيفاء القدود تحمل في رؤوسها القوت والنشاط للناس؛ – إذا بهنّ سميرات لا مثيل لهن بين السُمّار. فهذه تروي لي حكاية أوّل حبّة من القمح بذرها اللّه في التراب. وتلك تخبرني عن جندب تيّمته فمات دنفاً. وثالثة تعيد على مسمعي ترانيم شحرور تنسّك في جوف صخرة. ورابعة تقصّ عليّ ما أسرّه إليها ثلج كانون وبنفسج آذار.

والقمر والنجوم من فوق تصغي وتتغامز وتتهامس، ثمّ تتدلى إلينا على حبال من نورها نظير العنكبوت على خيط من خيوطها. فتتعانق النجوم والسنابل. وتتطارح أحاديث مودّة قهرت الزمان والمكان. وتنفتح مغالق الأعماق، وتنحلّ طلاسم الأعالي. وإذا التراب درارٍ والدراري تراب. وإذا الظلام في بؤبؤ النور، والنور في كبد الظلام. وإذا الكلّ مزيج طيّب المذاق، فائق السناء. فما أفسحه بيدراً - ذاك الذي أنا عليه - يسع الأرض والسماء. بل ما أعجبني سنبلة لها في كلّ نجم تربة وبيدر. بل ما أكرمها يداً تلك التي بذرتني ولا تزال تبذرني منذ اللابداية في كلّ بقعة من بقاع الأرض والسماء ثمّ تحصدني، ثمّ تدرسني وتذرّيني، ثمّ تبذرني من جديد في رحاب اللانهاية إلى أن أجمع في قبضتي اللابداية واللانهاية!

تلك هي المتعة الأولى من متعات البيادر، وثمة ثانية، هي متعة الوقوف أو الجلوس على النورج، والدوران على البيدر دورة بعد دورة حتى لتكاد تنسى أن على الأرض أو في الأجواء من حولها حركات تسير في خطوط مستقيمة أو متعرجة، ولا تبصر في الكون غير دوائر في دوائر، وأمامك ثوران يدوران الهوينا ويجرّان خلفهما النورج. وبين الفينة والفينة يملآن شدقيهما

بالسنابل فلا تزجرهما، بل تقول لهما من أعماق قلبك: «صحتين. صحتين» عالماً أن لهما في سنابلك شركة وحقّاً.

الشمس تشويك وغبار التبن يدخل عينيك ومنخريك. فلا تتذمر من الشمس. ولا تتأفّف من غبار التبن. وللسنابل حفيف تحت أسنان النورج ليس يعرف حلاوة وقعه غير أبناء البيادر. وللنسيم جولات وكرات تلطف من حرارة الشمس على جبينك. وللجبال الغائمة في وهج النهار شفاه تتمتم لك البركة وعيون تشع لك السلام.

وأنت إذ تدور مع النورج دورات متواصلات وتسمع السنابل تنسحق تحت أسنانه ينفكّ خيالك من أصفاد الفراسخ والساعات فتراك بيدراً مفروشاً بكلّ ما أنبتته حياتك من قمح وشوك وزؤان. وترى نورج الأقدار يسحن حياتك بأسنانه ليعتق حبّها من سجون أحساكها ويميط لثام قشورها عن لبابها.

وثمة متعة ثالثة هي التذرية للفصل بين الحبّ والتبن - بين اللباب والقشور. فما أعرف مشهداً أبهج للعين وأدعى إلى التأمّل من مشهد بيادر كثيرة مبعثرة هنا وهناك على سفوح الجبال ومناكب الأودية تلعب فيها المذراة دورها في آن واحد. فلا ترى، أنّى التفتّ، سوى دفعات من التبن والقمح تتسابق صعوداً في

الهواء وهبوطاً إلى الأرض. فيطير التبن ثمّ يسقط متماهلاً إلى ناحية البيدر. أما القمح فيعود سريعاً إلى الكومة التي ارتفع منها. فليس من حبّة واحدة إلاّ ترتفع في الجوّ وتعود إلى الأرض مئات المرّات. والمذرّي، مع ذلك، لا ينفد صبره، ولا ترتخي عضلاته، بل ينظر إلى الحبوب نظر العاشق إلى معشوقه، وأكبر همّه أن تسعفه الريح في إنجاز عمله. «يا ربّ نسمة هوا.» وإذا خانته الريح فترة ولو قصيرة من الزمن اتكأ على مذراته وعزّى نفسه بقولهم المأثور: «لا بدّ من ان يفضل عن المذرّي هوا.» لكنه لا ينفكّ يدفع بالقمح والتبن إلى فوق حتى تتمّ العجيبة. فإذا التبن في جانب من البيدر والقمح في آخر. وإذا السنبلة التي كنت تحسبها كياناً واحداً متماسك الأجزاء، موحّد الغايات، قد تفككت وتبعثرت من بعد أن قامت بواجبها خير القيام، وواجبها إنما هو صيانة الحبة من الطوارئ والفساد واحتضانها ريثما تنضج وتستوفي جميع قواها. فكأنها الجسد يتفكك عن الروح عمراً بعد عمر ريثما تتفتح الروح وتستكمل جميع قواها الربّانيّة.

أما المتعة الرابعة والأخيرة فمتعة الغربلة. وأروع ما في هذا الفصل من رواية البيادر التي كلها روعة هي رقصة الغربال. فما إن تهزّه يد المغربل حتى ينتفض كلّ ما فيه انتفاضة لا تدري

انتفاضة جذل هي أم انتفاضة وجل. فالحبوب تدور على ذاتها وبعضها على بعض كأنّها جماعة من الدراويش في ليلة ذكر. والأحساك تتكتّل وتتجمّع فوق الحبوب تجمّع الرغوة في أعلى القدر. والتراب والزؤان والحبوب الهزيلة الدميمة تنهلّ من ثقوب الغربال انهلال الدمع من العين أو الطلّ من السحاب. والحصى ترتطم وتتدافع وتختبئ تحت الحبوب في أسفل الغربال ناسية أن عين المغربل لن تغفل عنها أينما كانت، وأن يده ستنشلها في النهاية من مخابئها وتطرح بها جانباً.

إن في رقصة الغربال لسحراً يسلخ كلّ ذي خيال عن نفسه ويطير به إلى أجواء بعيدة. فانا ما شهدتها مرّة إلاّ تخيلت هذه الأرض غربالاً هائلاً تهزّه يد القَدَر، وتخيّلت الناس حبوباً راقصة في ذلك الغربال. وغاية القَدَر من تصفيقه الناس ذات اليمين وذات اليسار، ومن جمعهم هنا وتفريقهم هناك، ومن رفعه لهؤلاء وخفضه لأولئك إنما هي تنقيتهم من كل ما كان غريباً عنهم، مشوّهاً لجمالهم، ومعرقلاً لخطاهم في سبيلهم إلى الانفكاك من كلّ وهم وقيد.

لكنما الناس لا يفقهون. فمنهم الضاحك لحسكة لصقت به. ومنهم الباكي لحسكة انفصلت عنه. أما السكارى منهم

بخمرة الانطلاق والانعتاق فما أندرهم! وأندر منهم الذين إذا ما رقصوا في غرابيل القدر كانوا على يقين من أن يدهم كذلك تهزّ الغربال مع يد القدر، فهم والقدر في تفاهم دائم وعلى أتمّ وفاق.

وتنتهي الغربلة فإذا بالبيدر كومة من القمح، وكومة من التبن، وكومة من الزؤان والحبوب الدخيلة والدميمة والأحساك والحصى والتراب. فيمسح صاحب البيدر العرق عن جبينه ويلقي نظرة على الكوم الثلاث ثمّ يقول: هذا بيدري. وهذه غلّتي. والحمد للّه على كلّ حال.

تلك هي حكاية البيادر الوضيعة التي ما كنت لأرويها لكم لولا اعتقادي أن كلّ واحد منكم بيدر، وأنّكم الزارعون والحاصدون والدارسون والمذرّون والمغربلون. فالويل لزارعي الزؤان لأنّهم زؤاناً يحصدون. والويل لحاصدي القطرب والعوسج لأنّهم قطرباً وعوسجاً يدرسون. والويل لمذرّي التراب والحصى لأنّهم تراباً وحصى يغربلون. ثمّ الويل لمن لا يحسن غربلة بيدره بيده وبغرباله. فذاك لن يجد لبيدره مغربلاً.

وهنيئاً لمن إذا حُوسب في هذه اللحظة استطاع أن يشير إلى بيدر طافح بالخيرات المنقاة وأن يقول بلا صلف ولا خجل ولا وجل:

«هذا هو بيدري. وتلك هي غلّتي. جنيتها من اللّه والناس وأُقدّمها إلى اللّه والناس.»

هـل أفـلس الدّيـن؟

ما أكثر القائلين اليوم: إن الدين قد أفلس. ولست اخال أن في تاريخ البشرية فترة خلت من قوم جاهروا بمثل هذا القول. إلاّ أنّهم اليوم أكثر منهم في كلّ يوم. ذاك لأن الكارثة التي تجتاح الناس في هذه الفترة من تاريخهم هي أفظع كارثة نزلت بهم منذ الطوفان.

وها هي ذي تلكم الكارثة تمرّ بحقول الدين فتلتهم أخضرها ويابسها، والدين مكتوف اليدين، جاحظ العينين، معقود اللسان، لا حول في حقويه ولا قوّة في ساعديه. إذن لقد انشلّت أعصاب الدين.

وها هي ذي تكرّ على دواليب من القساوة التي يخجل الوحش من أن تنسب إليه، والدين يأمر بالرفق والرحمة. إذن لقد غُلب الدين على أمره.

وها هي ذي مركباتها تسير مدفوعة بما يتأجّج في قلوب الناس من طمع وبغض وانتقام. والدين يأمر بالقناعة والمحبّة والصفح! إذن لقد رَذَل الناسُ الدينَ وخذلوه ونبَذوه.

وها هي ذي لا شراب عندها ألذّ من الدم، ولا مأثرة أشرف من السلب، ولا شهوة أعلى من الفحشاء، ولا فضيلة أسمى من المَين، ولا متعة أحبّ إلى قلبها من امرأة القريب وأمَته وبيته وثوره وحماره. والدين أوصى من زمان: لا تقتل. لا تسرق. لا تزنِ. لا تشهد بالزور. لا تشتهِ امرأة قريبك ولا أمَته ولا بيته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً ممّا لقريبك. إذن لقد أفلس الدين.

لو أن الدين ما كان غير سلسلة من الشرائع الآمرة بالخير والناهية عن الشرّ؛ أو لو أن الذين وضعوا تلك الشرائع للناس عن الشرّ؛ أو لو أن الذين وضعوا تلك الشرائع للناس وضعوا لتنفيذها حدّاً من الزمان، ثمّ اجتازت الإنسانيّة ذلك الحدّ وما استطاعت تنفيذها، إذن لصحّ قول القائلين بأن الدين قد أفلس.

لكنما الدين غير سلسلة من الشرائع. ولكنما الزمان مطيّة الدين وليس الدين مطية الزمان. ولكنما الشريعة مِقود في يد الدين وليس الدين مقوداً في يد الشريعة.

إنما الدين أيها الناس هو شعوركم باللّه المنطوي فيكم، لا أكثر ولا أقلّ. فمن كان شعوره باللّه نوراً صافياً كان دينه نوراً صافياً. ومن كان شعوره دخاناً كان دينه دخاناً.

وذلكم الشعور هاجع في قلب كلّ إنسان هجوع النار في

الحطبة، والخمرة في الجفنة، والفصول في سكينة الأرض. ومثلما تستيقظ النار في الحطبة إذا ما احتكّت بمثلها هكذا يستيقظ شعور الإنسان باللّه عند احتكاكه بأخيه الإنسان. فيكون شعوره في البداية دخاناً يعمي البصيرة والبصر، ثمّ حرارة تدفئ بعض الدفء ولا تنير، ثمّ سعيراً ينير ولكنّه يحرق، ثمّ إشعاعاً هادئاً يدفئ وينير ولا يحرق، ولا يقبل الزيادة والنقصان، ولا يخبو على مرّ الزمان.

أمّا أنَّ ذلك الشعور لا يظهر في الكلّ دفعة واحدة لا بقوّة متعادلة فما في ذلك عجب على الإطلاق. فمِنَ الناس من دينهم دخان، ومنهم من دينهم حرارة بطيئة وخفيفة، ومنهم من دينهم لهيب؛ ومنهم – وهم صفوة البشرية من أوّل عهدها بالأرض حتى اليوم – مَن دينهم إشعاع هادئ أبدي.

وعلامَ تطلبون من الناس أن يتعادل شعورهم باللّه ولا تطلبون منهم أن تتعادل معرفتهم للحساب وعلم الهيئة؟ أمْ علامَ تطلبون من الناس أن يحسّوا اللّه بدرجة واحدة ولا تطلبون منهم أن يحسّوا البرد والحرارة بدرجه واحدة؟ بل علامَ تعجبون لهم لا ينحطون إلى الشرّ في نسبة واحدة؟

ما بالكم لا تدهشكم العناصر تنفق آلاف السنين في تحويل شجرة فوق الأرض إلى حطبة في جوف الأرض، ثمّ إلى فحمة

سوداء، ثمّ إلى جوهرة فائقة البهاء، ويدهشكم ألا يجعل اللّه الكاملُ إلهاً كاملاً من كلّ إنسان في لمحة من الزمان؟ إن تكن حَطبة حَريّة بحصة وافرة من الزمان لتنجلي عن جوهرة كاملة أفليس الإنسان أحرى بكلّ الزمان لينجلي عن إله كامل؟ أو تكن كيمياء العناصر دقيقة وعجيبة إلى حدّ أفليست كيمياء اللّه أدقّ وأعجب من غير حدّ؟

من منكم إذا ما غرس جفنة من الكرم في المساء توقّع أن يقطف منها عنباً في الصباح؟ فما بالكم تتوقّعون من الإنسان الذي ليس سوى غرسة الأمس أن يعطي كلّ ثماره وأشهاها اليوم؟

من منكم إذا ما أرسل ابنه إلى المدرسة اليوم أمل أن يعود ابنه في الغد حاملاً الشهادة الأخيرة؟ والحياة مدرسة لا يزال أكثر الناس في صفوفها البدائية فكيف تطالبونهم بالمعرفة الكاملة والدين الكامل؟

من منكم إذا ما أكل الحصرم فضرس لعن الجفنة وقال أن ليس في عناقيدها إلاّ الضَّرس؟ فكيف بكم تصبرون على الحصرم مؤمنين بأنّه سيغدو عنباً حلواً بعد قليل، ولا تصبرون على الذين لا يزال شعورهم باللّه حصرماً فلا تؤمنون بأن يوم نضجه آتٍ لا محالة، وبأنكم ستستقطرون منه رحيقاً سماويّاً؟

إن دين الأكثرية الساحقة من الناس لا يزال دخاناً. ولكنه دخان من ورائه حرارة. ولكنها حرارة من بعدها نار. ولكنها نار سينقلب سعيرها إشعاعاً هادئاً لا يخبو إلى الأبد. وما القائلون بأن الدين قد أفلس إلا الذين أعماهم دخانهم ودخان أمثالهم عن الرجاء بأن لا بدّ من أن ينقشع الدخان عن حرارة بعدها نار، بعدها نور، بعدها إشعاع أبدي.

لا. ما أفلس الدين، ولا أفلس من الدين حتى الذين يتهمون الدين بالإفلاس. بل كلّ ما هنالك أن شعورهم باللّه لا يزال في شكل دخان يضيّق عليهم انفاسهم، ويغشى بصائرهم وأبصارهم، فيتعذّر عليهم معه أن يفهموا كيف أن الشرائع الدينيّة تُداس وتُمتَهن ويبقى، مع ذلك، الدين حيّاً قويّاً.

لا قيمة لشريعة - مدنيّة كانت أم دينيّة - إلاّ على قدر ما يدرك روحها أولئك من الناس الذين وُضعت لأجلهم. فالذين ما برح شعورهم باللّه دخاناً كيف لهم أن يفهموا الوصيّة: «أحبّ قريبك كنفسك» وأن يعملوا بها وهم لا يشعرون بأبوية اللّه للناس وأخوية الناس في اللّه؟ وإن تَقُلْ لأحدهم: لا تقتل، أجابك: إنها لوصية جميلة، ولكنها تحرّم على عدوّي قتلي، وتبيح لي قتل عدوّي، ثمّ إنها تحلّل للجموع ما تحرّمه على الفرد.

أما عصى آدمُ ربّه بُعَيْد ان انزلق عن كفّه طينة نديّة وروحاً فتيّاً؟ لماذا، وقد كانت الخليقة بأسرها طاهرة نقيّة؟ ذاك لأن آدم كان لا يزال مولوداً جديداً، وشعوره باللّه ما كان غير خلجات خفيفة خفيّة لا يفقه لها معنى ولا يعرف لها مصدراً أكثر ممّا يفقه الرضيع ويعرف من خلجات قلبه وعلاقتها بقلب أمّه. وما دورة الحياة الطويلة المدى، العديدة المراحل، سوى المختبَر الذي لا بدّ للإنسان من دخوله كيما يخرج منه في النهاية وشعوره باللّه مماثل لشعور اللّه بذاته.

وأمّا الشرّ الذي يتبرّم به الناس فليس سوى ألم الانتقال من الشعور الهاجع هجوع النار في الحطبة إلى الدخان فالحرارة فالسعير فالإشعاع الهادئ الأبديّ.

إن كان ما ترقبونه من الدين هو استئصال شأفة الشرّ من الأرض في جيل أو جيلين أو ألف جيل فيا لطول ما سوف ترقبون!

أو كان ما تأملونه من الدين أن يجعل هذه الحرب خاتمة الحروب فيا لخيبة ما تأملون! إذ لن يكون سلام أبديّ حتى يصبح شعور الكلّ باللّه إشعاعاً هادئاً أبديّاً.

أو كنتم ممّن يدينون الدين بآثام رجال الدين فيا لضياع الجهود التي تبذلون والأحكام التي تصدرون! فهل رجال الدين

إلاّ منكم وفيكم؟ وهل هم غير بشر مثلما أنتم بشر؟ فمنهم الذين شعورهم باللّه دخان. وهؤلاء برحمتكم أولى منهم بنقمتكم. فارحموهم بدلاً من أن ترجموهم. وزوّدوهم من نوركم إن كنتم نيرين. ومنهم الذين يشع دينهم إشعاعاً هادئاً في كلّ ما يقولون ويفعلون. فاستنيروا بهم إن كنتم إلى النور سائرين.

أما الشرائع الدينيّة على أنواعها فما الغاية منها غير تفتيح الشعور باللّه وتوسيعه إلى أقصى حدوده. فما زاغ منها عن الغاية كان شراكاً للناس ومعاثر. وما تركز في الغاية كان للناس منارات على جوانب الطريق ونذيراً من الفخاخ والمعاثر. والذي يتقيّد بها عن فهم وعن رضى لَخير بما لا يقاس من الذي يتقيّد بها عن خوف وعن كراهية. وأما الطقوس والمراسيم الدينيّة على وفرتها فليست سوى وشي على هوامش الشريعة بعضه لا ينفع ولا يضير. وبعضه يضير ولا ينفع. وبعضه ينفع ولا يضير. والقليل الصالح خير من الكثير الطالح.

وبعد فيا ليت القائلين بإفلاس الدين يتلطّفون بالجواب عن هذين السؤالين:

إذا صحّ أن الدين - وهو شعور الإنسان بالإله المنطوي فيه - قد أفلس، فأي شعور في الإنسان ما أفلس بعد؟

وما قيمة الإنسان لولا شعوره باللّه، وأنّى مصيره؟

مناجاة

ليلٌ بهيم، وسماء غضبَى، وأرض في وجوم.
وفي الرأس سباق أفكار لا تنام،
وفي القلب حفيف أشواق وارفة، نديّة،
وفي العين رسوم أشباح تتساوم على بني الإنسان وتتصافق،
وفي الأذن جلبة من صلوات وعربدات، وزفرات وقهقهات، وأنين شيوخ، وانتحاب أطفال، ودمدمة براكين، وهدير بحور كثيرة.

وعلى الشفاه دبيب حروف ومقاطع وكلمات تنتظم وتنتثر تسابيح خافتة حييّة لاسمك القدوس يا من تعالى عن الأسماء والتسبيح.

* * *

يا ناشر الليل من كبد النهار، ومضرم النهار من محاجر الليل،

طال ليلٌ نشرته فوق أرض حسيرة عشواء، طال وادلهمّ

وتغضّن وترهّل، ولكنه ما شاخ بعد ولا ابيضّ فوداه. وبنو الأرض يدأبون في غضونه ويكدحون كما تدأب المناجذ وتكدح في غياهب التراب.

يكدحون ويدأبون إلاّ أنّهم حيث يبدأون ينتهون.

يزرعون ويحصدون وفي الأهراء يخزنون، ولكنهم أبداً جياع وأبداً معوزون.

من حشاشة الأرض يأكلون، ومن مآقي المزن يشربون، ولكنهم في غصّة دائمة بما يأكلون وبما يشربون.

يتزاوجون ويتناسلون وأبداً عن سندٍ وعون يبحثون.

يتخاطبون ويتكاتبون فما يتعارفون ولا يتفاهمون.

يتنازعون على أردان الليل وأذياله، فيمزّقون لحومهم بأظفارهم، ويسحنون عظامهم بأضراسهم، وبغير نُتف من جلابيب ليلهم لا يظفرون.

من أين للأرض هذا القرمز في وجنتيها؟

أهو الدم المسفوح من نحر هابيل؟ أم شهوة الدم المشبوبة في قلب قايين؟

أما يزال دم هابيل سائحاً في عروق الأرض وصارخاً: «أنا الدم المهراق لا لذنب إلاّ لأنّني أرضيت فارتضيت»؟

وشهوة قايين التي لا تُرضي ولا ترتضي، ويؤلمها إذا ما غيرها أرضى فارتضى، أما تنفكّ تستعر في أحشاء الأرض؟

أمحتوم على الحبالى ألاّ يحبلن بهابيل دون قايين؟ وعلى الوالدات والمرضعات ألاّ يلدن ويرضعن سوى الذبائح والذباحين؟

فيا ويل الحبالى والوالدات والمرضعات! يا ويلهن يغسلن أوزار أبنائهنّ الذابحين بدماء أبنائهنّ المذبوحين، فلا الأوزار بمغسولة، ولا الدماء بمحقونة.

حتى مَ تحترق الأرض بشهوة قايين فلا يطفئها دم يتفجر من أوداجها، ودمع ينهلّ من أحداقها؟

وإلى مَ هذا الليل يغشّي على أبصار بني الأرض فيلتقي في طياته الأخ أخاه فينكره ويبغضه ويرديه ثمّ يغسل يديه من دمه ويقول: «ما أنا بحارس لأخي»؟

ومتى تنحسر الظلمة عن أبصار بني الأرض فيعرف الأخ أخاه، ويعرف أنّه حارس لأخيه ومطالَب براحته وسلامته وحياته إذا ما شاء هو الآخر أن يتذوّق الراحة والسلامة والحياة؟

متى يتهلهل ليلٌ كثيف نشرتَه فوق أرض حسيرة عشواء فيرفع إليك كلّ ابن أنثى قلبه الملفوح ويهتف عالياً:

«أهلني يا مالك النهار والليل أن أعرف أخي وأكون له

حارساً نشيطاً، يقظاً، أميناً ومحبّاً كيما يكفّ دمه في أذني عن الصراخ، ودمي عن الغليان والفوران.»

إلى مَ، إلى مَ هذا الليل يا ناشر الليل من كبد النهار، ومضرم النهار من محاجر الليل؟

يا واحداً لا يُعَدّ، ويا أَلِفاً لا تُمثّل، وياء لا تُصَوَّر،

ها هم الذين برأتهم صورة لك ومثالاً، فنفخت في صدورهم نَفَساً من صدرك، وأودعتهم روحاً من روحك، لا يغريهم من عيشهم شيء مثلما يغريهم اللهو بالأعداد، وتمثُّل البدايات، وتصوير النهايات. فهم أبداً يجمعون أعداداً إلى أعداد، ويطرحون أعداداً من أعداد، ويضربون أعداداً في أعداد، ويقسمون أعداداً على أعداد. ونتيجة ما يجمعون ويطرحون، وما يضربون ويقسمون أعداد فوق أعداد فوق أعداد، تبرى بترديدها ألسنتهم، وتضيق بها خلايا أدمغتهم، وتتورم من الحملقة إليها أجفانهم، وتتكسر على ركامها أقلامهم، وتنشقّ من ضغطها سجلاتهم.

يعدّون الثواني والساعات، والسنين والقرون، ويحصون من وُلد ومن مات.

يعدّون أجرام السماء، ويحصون كل دورة من دوراتها ولفتة من لفتاتها، ويحسبون أوزانها وأبعادها.

يعدّون نبات الأرض وحيوانها، وطيرها وحشراتها، ومعادنها وطبقاتها، وما فيها من جبال وبحار، وجداول وأنهار، وسهول وأغوار، وما على سطحها من مدن ودساكر ومزارع، وما في المدن والدساكر والمزارع من بشر وبهائم، ومن أيدٍ تعمل ولا تنعم، وأيدٍ تنعم ولا تعمل. يعدّون في الصوت نبراته، وفي القلب أنباضه، وفي الجسم عظامه وعضلاته.

يعدّون أرزاقهم من ثابت ومنقول، ولهم دفاتر يقيدون فيها ما يملكون من مال وما يدينون ويستدينون. وهم عليها أحرص من نملة على حبة، ومن عنكبوت على ذبابة. تلك هي دفاتر الخزائن والجيوب. أمّا أن تكون لهم دفاتر للأرواح والقلوب يحاسبون فيها نفوسهم عن كلّ كلمة جارحة، ونية غدارة، وفكرة قتّالة، ومحبة حبسوها، ويد أمسكوها، ونعمة حجبوها عمّن هم في حاجة إليها فما فكروا في ذلك ولا يفكرون.

يعدّون، ويعدّون، ويعدّون، وإليك يا واحداً لا يُعَدّ لا يهتدون.

ها هم الذين لفظتهم حروفاً حيّة في اسمك الحيّ الذي لا يُلفظ ما يفتأون يصلون الحروف بالحروف، والمقاطع بالمقاطع، ويزوّجون الكلمات من الكلمات ويؤلفون منها الأحاديث

والأساطير والأسفار. فلا تكلّ لهم شفاه، ولا تحزُنُ لهم أقلام، ولا تتخدّر منهم أنامل، وكلماتهم أكثر ما تكون دخاناً لأبصارهم، وفخاخاً لأقدامهم، وسموماً لدمائهم، ومناخز تقض عليهم مضاجعهم وتعبث بأحلامهم، والبريء منها ما كان كاليعسوب، لا عسل في فمه ولا إبرة في دبره.

أما الكلمة التي تضمد جرحاً، وتفكّ قيداً، وتمزّق غشاوة، والكلمة التي تجمع ولا تفرّق، وتجبر ولا تكسر، وتفتح ولا تغلق؛ والكلمة التي تشفع ولا تصفع، وتصفح ولا تنبح، وتعين ولا تدين فما أندرها! وأندر منها كلمة في يائها أَلِف وفي ألفها ياء - طليقة من أحابيل البدايات والنهايات حيث بنوك يتخبطون وعنك يا ألفاً هي الياء، وياء هي الألف، يصدفون.

أعداد فوق أعداد، وحروف ومقاطع وكلمات بعد حروف ومقاطع وكلمات، وكلّها سواد في سواد، وظلمات طي ظلمات.

فإلى مَ، إلى مَ هذا الليل يا واحداً لا يُعَدّ، ويا ألفاً لا تُمثَّل، وياء لا تُصَوَّر؟

* * *

يا قلباً يضيف ولا يُضاف، ويا روحاً ينير ولا ينار،

ما للضيوف المتألبين حول موائدك يتدافعون ويتلاطمون ويتناهشون؟ وموائدك فسيحة الأرجاء، مثقلة بأعجب الخيرات وأثمن البركات من كلّ ما يؤكل ويُشرب. أصنافها لا تعرف العدّ ولا النفاد. وقد ضمختها السماء بأطيب العطور، وزينتها الأرض بأبهج الألوان والأشكال.

ما للشباع من ضيوفك يتجشأون، وتخماً في أمعائهم يشكون، ولكنهم لا ينصرفون لحظة عن المائدة ولحظة لا يقيلون، وللجياع مجالاً لا يفسحون؟ ألعلّهم يخشون على كنوز خيراتك النفاد، وعلى فوارات نعمك النضوب، وعلى يدك المبسوطة الانقباض، لذلك يخزنون من يومهم السمين لغدهم الأعجف؟

وإذا ما خيرك يوماً نفد، ونعمتك نضبت، ويدك انقبضت فما ينفعهم كل ما يخزنون؟ وهل من غد ليوم تحبس فيه قراك عن المقترين؟ ما للجياع من ضيوفك يقدّمون رجلاً ويؤخّرون أخرى، ويلاوصون، ويتغامزون وبلعابهم يتلمّظون؟

ما لهم كالغرباء، أو كالبرص، بين ضيوفك، يدورون من حول موائدك وبغير الكسارة والسقاطة لا يظفرون؟

ما للبياض في عيونهم يصطبغ بحمرة الشفق، وللدماء في عروقهم تنحمّ، وللعضلات في سواعدهم تتكمّش؟

ما للضيوف، شباعهم وجياعهم، لا يعرفون للضيافة حشمة، ولا للمضيف وقاراً، فيتقاتلون على قصاعه المليئة أبداً بكلّ خير، وإياه بالخير لا يذكرون؟

متى يشبع الجياع من جودك ويمتلئ الشباع من وجودك فلا يتدافعون ولا يتلاطمون ولا يتناهشون؟

إلى مَ، إلى مَ هذا الليل يا قلباً يضيف ولا يضاف، ويا روحاً ينير ولا يُنار؟

ليل بهيم، وسماء غضبَى، وأرض في وجوم.

وفي الرأس بريق فكر واحد وهاج،

وفي القلب بشارة فجر يولد،

وفي العين خيالات مجلببَة بالنور،

وفي الأذن أجواق من عوالم لا تُبصَر ترنّم صامتة ترنيمة الانعتاق،

وعلى الشفاه تسابيح عالية لاسمك القدوس يا ناشر الليل من كبد النهار، ومضرم النهار من محاجر الليل،

يا واحداً لا يُعَدّ، ويا أِلفاً لا تُمثَّل، وياء لا تُصوَّر،

يا قلباً يضيف ولا يضاف، ويا روحاً ينير ولا ينار.

بلاد دينها في فمها

ما عرفتُ بلاداً أمرعَ الدين في فمها وأجدب في قلبها إلى حدّ ما هي الحال في هذه البلاد، فمآذنها الباسقة، وأجراسها الصدّاحة، وعيدان منابرها، وحجارة معابدها، ومقاعد مدارسها تتجاوب في كلّ يوم بذكر الواحد العليّ العظيم، وبمجده وبحمده. فهو أرحم من رحم، وأعدل من حكم. وهو القدير العليم، والسميع المجيب، والوهّاب الكريم. وهو مقسم الأرزاق والأعمار، ومسيّر الأكوان والأقدار، وهو خالق الكلّ وأبو الكلّ. منه الثواب وإليه المآب وعليه الاعتماد والاتكال.

وما أكثر الآيات المنزلة، والأمثال السائرة التي خلقتها الفطرة الدينيّة في هذه البلاد، والتي تلوكها بغير انقطاع ألسُن الكبار والصغار من عامّة وخاصّة، ومن معمّمين ومقلنسين، سواء في ذلك السهل والصحراء، والجبل والساحل، والمدينة الكبيرة والمزرعة الحقيرة. فللولادة آيات وأمثال، وللزواج آيات وأمثال، وللموت آيات وأمثال. ومثلها لكلّ عمل يعمله الناس، وكل نيّة

ينوونها، ولكل وقفة وقعدة من وقفات الحياة وقعداتها، وكل بسمة وعبسة من بسمات الأيام وعبساتها.

إن بلاداً آمنت باللّه وباليوم الآخر، ثمّ أشركت اللّه في كلّ أحوالها، وجعلته القيّم على أفكارها وأعمالها، فلا وجود لها إلاّ في وجوده، ولا مشيئة إلاّ من مشيئته، ولا علم إلاّ من علمه، ولا قدرة إلاّ من قدرته. إنّ بلاداً ذاك شأنها مع اللّه لبلادٌ أقلّ صفاتها شجاعة روحيّة لا ينال الخوف منها مأرباً ولا يأخذ الشكّ منها مأخذاً. تقابل الموت بمثل الرضى الذي تقابل به الحياة. ولا تطمع من حطام الأرض بأكثر من خبزها الجوهري، وكسائها الضروري، وبمأوى يقيها عاديات العناصر. تسخر بالحزن والفرح على السواء. وتكبر على الذل والكبرياء. وتأنف الشقاق والخصام، ولا تتدنّس بالبغض والحقد والنميمة، بل تحمل في قلبها لكلّ أبناء اللّه محبة الشقيق للشقيق، وإخلاص الرفيق للرفيق.

ولكن أين تلك الشجاعة من هذي البلاد؟ بل أين هذي البلاد من تلك الشجاعة؟

ألعلّ بين ألسنة الناس هنا وبين آذانهم، ثمّ بين آذانهم وقلوبهم، مسافات كالتي تفصل الأرض عن زحل، فلا يسمعون ما يقولون، وإن سمعوا فلا تنبض قلوبهم بما يسمعون؟ وإلاّ فمن

أين للخوف والموت، والشقاق والبغض، والتكالب على حطام الأرض هذا السلطان الذي لها في هذه البلاد؟

ما إخال أن تحت القبّة الزرقاء بلاداً عشّش الخوف في جماجمها، ومشى الهمّ في مفاصلها، وتحصّن الحقد في قلوبها، وخيّم الحزن في أحشائها نظير بلادكم وبلادي. فهي ترتعد فرائصها لأقلّ غمامة تعدو، وريح تنفخ، ورعد يقرقر، وشبح يطلّ ولو على الأفق البعيد. وأمّا خيال الموت فيسحقها سحقاً. وهي التي تشهد في كلّ يوم من الأسبوع، وفي كل أسبوع من الشهر، وفي كل شهر من السنة بأنّها «تترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد». وهي التي تُردّد من على منابرها «وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثمّ يميتكم، ثمّ يحييكم، ثمّ إليه تُرجعون.» وهي التي يطيب لها التمثّل بأيوب وقول أيوب: «الرب أعطى والرب أخذ. فليكن اسم الرب مباركاً.»

يمرّ بها الموت فيصرع إيمانها، ويقطّع نياط رجائها، ويقوض حصونها على رأسها ويتركها في ظلمة دامسة من الحداد، تشرَق بالدمع، وتشهق بالتفجع، وتبح بالنوح والعويل. فلا عزاء، ولا رجاء. بل عتب على الخالق لماذا خلق. حتى تأنيب له لأنّه أعطى ثمّ ندم فاسترد.

ليت شعري، لماذا يضنّ أبناء هذه البلاد بحياتهم، وبماذا عساهم يضنون إذ يضنون بها على الموت؟

إنهم ليضنون برِجْل تسعى، أن تكف عن السعي. أمّا إلى أين تسعى وبماذا تسعى - ألى الهاوية أم إلى القمة، أبالخلاص لها وللناس أم بالهلاك لهم ولها؟ - فأمر لا يشغل بالهم على الإطلاق.

وإنّهم ليضنون بعين تبصر، أن يفارقها البصر. أمّا ماذا تبصر - أحسناتها وسيئات الغير أم سيئاتها وحسنات الغير؛ أجمال الحكمة السرمديّة أم قباحة الجهل الذميم؟ - فلا عبرة في ذلك البتة.

وإنهم ليضنون برِئة تتنفس، أن تصبح عديمة النفَس. أما ماذا تتنفس - أبلسماً للناس أم سمّاً زعافاً؟ - فلا فرق عندهم ولا تمييز.

وإنهم ليضنون بقلب ينبض، أن يغدو عديم النبض. أمّا بماذا ينبض - أببهجة الإيمان المطمئن أم بلدغات الحيرة المذعورة؟ - فالوجهان عندهم سيان.

وإنهم ليضنون بلحمة ناطقة في الفم، أن تمسي عاجزة عن النطق. أما بماذا تنطق - أبالبركات أم باللعنات، أبالمكر أم بالوفاء، أبالبغض أم بالمحبة؟ - فما ذاك من الأهمية في شيء.

إنهم يضنون لا بالحياة بل بمعيشة تربّع الموتُ في كبدها وقلبها، وسيطر الخوف على مداخلها ومخارجها. أما الحياة التي هي أكثر من معيشة والتي هي السلك السري الواصل الخالق بمخلوقاته، والتي لا غاية منها إلاّ الوصول بالإنسان إلى ربّه، فما يعرفون لها قيمة ولا هم بها ضنينون.

أسفي على هذه البلاد - بلادكم وبلادي - تؤثر بقاء فيه موتها على موت فيه حياتها. فتسعى وراء رزقها لا لغاية إلاّ ليبقى لها النفَس في صدرها. وتحافظ على النفَس في صدرها لا لقصد إلاّ لتبقى في مفاصلها حركة. وتحترس على الحركة في مفاصلها لا لمرمى أبعد من أن تسعى وراء رزقها.

ألا ليت ما في فمها من إيمان كان في قلبها، إذن لما سيطر الموت على أفكارها ومشاعرها إلى مثل هذا الحدّ. وإذن لما شاع مثل هذا الحزن، ومثل هذا الانسحاق في ناظريها، وفي صوتها، وفي كل حركة من حركاتها وسكنة من سكناتها. فمآتمها ضروب من اليأس الظافر والحزن المعتزّ بذاته. وأعراسها مآتم، وزغاريدها ولولة، وتهليلها إعوال، وضحكها بكاء جموح، وخمرتها دم مسفوح.

لو كان في قلبها مثل ما في فمها من الإيمان لما كان هذا

التكالب الذي نشهده فيها على الدرهم والدينار، ولما كان أبناؤها كالذئاب يفترس الأخ أخاه، ولا كالذباب يعيشون من قروح الناس وأوجاعهم. فلا يأنف من عنده ألف رغيف من أن ينتشل اللقمة مِن فم مَن ليس عنده رغيف واحد؛ ولا مَن عنده ألف ثوب من أن ينتزع الأسمال عن بدن المقرور؛ ولا مَن يملك داراً بعد دار من أن يرفع السقف من فوق رأس ضرير فقير. فكأن لا قيمة للدماء المتفجرة من عروق البشرية شرقاً وغرباً، ولا معنى للزفرات المتصاعدة من صدورها. ولا مغزى للعبرات المنهمرة من مآقيها إلاّ على قدر ما تتمكن هذه البلاد من تحويلها إلى دنانير ودراهم. وكأن ما من وجه يلوح لها من خلال ما هو جارٍ في الأرض سوى وجه الفلس الصبيح العزيز. فيا ويلها من وجه ربها!

أفما كان الأليق بها أن تقول: توكلت على الفلس كيفما جاء ومن أينما جاء، بدلاً من أن تقول توكلت على اللّه؟

ومن ثمّ فلو أنّها كانت مع الفلس في خير لكانت مصيبتها بعض المصيبة. ولكنها والفلس في عراك لا هدنة فيه ولا رحمة: فما إن يصبح أسيرها حتى تصبح أسيرة له. وما إن تنفقه حتى ينفقها. فهو أبداً الغالب وهي المغلوبة. وهو السيد وهي العبدة.

أقول ثانية – ألا ليت الدين الذي في فم بلادكم وبلادي

كان في قلبها. لأن ديناً تزرعونه في الفم دون القلب لَدين لا يزهر ولا يثمر. وإن أزهر فرياء فيه ألفُ وباء. وإن أثمر فثماراً تعافها الملائكة ولا تستلذها إلا الشياطين. وثماره تعصب يعمي البصيرة والبصر، وحقد ينهش شغاف القلب، ومرارة تتفشى في جوانب النفس فتقلب حقها باطلاً ونورها ظلاماً.

مَن كان دينه في فمه دون قلبه كان قيّماً على ربّه لا ربّه قيّماً عليه. فكأنّه يقول للّه: لقد آمنت بك يا اللّه وبعلمك، وعدلك وقدرتك. لكنني أعرَفُ منك بسياسة عبادك. فسأجعل كلّ الناس يعرفونك مثلما عرفتك ويعبدونك مثلما أعبدك. ومَن شذّ منهم قتلته إن لم يكن بساعدي فببغضي وانتقامي. ولكنني أعدل منك. وعدلي في أن أرحم من جاراني في عبادتك وأقتص ممن عاندني وناوأني. ولكنني أقدر منك. وقدرتي في أن أسلب من لا يشهد بك شهادتي الحياة التي أعطيته إياها كيما يعرفك ويشهد أنّك أبوه وأبي وأبو الخلق أجمعين.

إن أمة دينها في فمها دون قلبها لأمّة لا تعرف التعاون. وأمة لا تعرف التعاون لا تعرف الإخاء. وأمة لا تعرف الإخاء لا تعرف المحبة. وأمة لا تعرف المحبة لا تعرف اللّه. وأمة لا تعرف اللّه لا حياة لها.

إلاّ أنّني لست بيائس من أمّتي وحياتها. فالخميرة الصالحة المخزونة في قلبها منذ فجر الزمان لخميرة لا تفسدها تقلبات الزمان، فهي وإن لفّها الجهل بألف خمار لا بدّ من أن تمزّق لفائفها عندما يأتي الأوان - وهو آتٍ من غير شك - فتمتدّ في القلب وتمتدّ إلى أن يختمر بها كلّ ما في القلب من شهوات ونزعات، فلا يبقى فيه غير إيمان لا يتزعزع بأبوة اللّه وأخوة الناس في اللّه. وإذ ذاك فلسان أمتي سيتكلّم من فضلة قلبها، لا قلبها من فضلة لسانها. وستكون أمتي رسول خلاص وبشير حياة لنفسها وللناس أجمعين.

التوأمـان : الشرق والغرب

شرق بصير وغرب مبصر

تفرّدت اللغة العربيّة بكمالات كثيرة ولا سيما في معالجة النفس البشرية وما انطوت عليه من قوى ومشاعر ونزعات. وفي ذاك دليل على أن بُناة هذه اللغة الكريمة قد سبروا في النفس أغواراً سحيقة وإلا لما خلقوا لغة تمكنهم من تصوير دفائن النفس في أدقّ معانيها، وأشفّ ألوانها، وألطف ظلالها. فما كانت اللغة يوماً أكثر من أداة للافصاح عن حاجة في النفس أو حاجة في الجسد. فعلى قدر ما تتسع تلك الحاجات وتتنوّع طواياها تتّسع اللغة وتتنوّع أساليبها. وشعب غزير الحسّ، مرن الفكر، وثّاب الخيال لا بدّ من أن يخلق لغة غزيرة الألوان، مرنة المفاصل، وثّابة البيان.

من أكمل كمالات العربيّة وأسماها تمييزها ما بين «البصيرة» و «البصر» وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة. بل توأمين من بطن واحد. ولكن ذاك الفرع غير هذا. ولكن هذا

التوأم غير ذاك. فكأنّـهما واحد وليسا بواحد. فالعين إذ تمرّ بهما تحسّ ما بينهما من تجانس. ولكنها تحسّ مع التجانس تبايناً. والأذن إذ تلتقطهما تستأنس في الاثنين برنّة تكاد تكون واحدة ولكنها غير واحدة. فهما أبداً متلاصقان متباعدان، ومتشابهان متناقضان. أمّا التلاصق والتشابه ففي المصدر، وأمّا التناقض والتباعد ففي الطريق والواسطة.

فالبصر - ومركزه العين - يحصر كلّ همّه في التقاط أشكال الأشياء وألوانها؛ ومن أشكالها وألوانها يحاول أن ينفذ إلى كنهها. حين أن البصيرة - ومركزها القلب أو الوجدان - همّـها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهي بظواهرها. فالاثنان يدأبان وراء المعرفة. لكن سبيل الواحد غير سبيل الآخر. أما أي السبيلين أفضل وأكفل بالوصول إلى المعرفة فأمرٌ لكلّ منكم الحقّ أن يبتّ فيه بحسب هواه.

أما أنا فقد قلت من زمان - وما أزال أقول - بأسبقية البصيرة على البصر في بلوغ الغاية المنشودة التي هي الفهم الأقصى المؤدي إلى الحرية القصوى.

لن يبلغ البصر قلب الحقيقة قبل أن يبلغ حدوده ويدرك عجزه وقصوره، ويلوذ بالبصيرة فينقلب بصيرة. أما البصيرة فلا

حدود لها، مثلما لا حدود للحقيقة التي تتوخاها. فهي، وإن توكأت على البصر، لا تسير على نوره. فالمحدود لا يسع سوى المحدود، وما كان بغير حدود لا يسعهُ إلاّ ما كان بغير حدود.

والآن إذا ما قلت لكم إن الشرق هو بصيرة العالم وإن الغرب هو بصره فما إخالكم تسيئون فهم ما أقول، فتحسبون أن الشرق كلّه بصيرة ولا بصر، وأن الغرب كلّه بصر ولا بصيرة. ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كلّ حسّ خارجي، وتجريدكم الغرب عن كلّ شعور باطني. وهو غير الواقع وغير المعقول. وجلّ ما أرمي إليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته وزبدة الغرب في بصره، وأن الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنّهما واحد ولكنهما غير واحد.

لقد اتّبع الشرق هذْي البصيرة، واتبع الغرب هذْي البصر. فأنجب الأوّل الأنبياء وأنجب الثاني العلماء. فكانت هدية الأنبياء إلى العالم أدياناً ترفع الأرض إلى السماء، وكانت هدية العلماء علوماً تهوي بالسماء إلى الأرض.

لكنما الإنسان، وقوى الإنسان، من ظاهرة وباطنة، في مدّ وجزر متلازمين. فللبصيرة، مثلما للبصر، مدّ يتلوه جزر وجزر يتلوه مدّ. ومَنْذا ينكر ان من بصيرة الشرق قد فاض على العالم

مدّ جارف من الكمالات والجمالات الروحيّة؟ منذا ينكر على الشرق قوة اندفعت من قلبه وفكره وروحه إلى كلّ قلب وفكر وروح فتغلغلت في نبضاتها، وسيطرت على خلجاتها، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها؟

منذا ينكر على الشرق سلطانه على كلّ أبناء الأرض منذ كانت الأرض وكان الشرق؟ وأي سلطان يتوخاه إنسان على إنسان، أقوى من السلطان على القلب والفكر والوجدان؟

ما هي بالهدية الطفيفة أن تهدي إلى العالم بأسره إلهاً، ومع الإله اليقين بأنّه أبوك الشفيق الرحيم العادل، ومع اليقين الرجاء بالانعتاق من ربقة الموت وآلام الموت.

تلك هي هدية الشرق إلى العالم. وهي هدية ما تلقفها العالم حتى أصبح كلّه معبداً لإله تعدّدت أسماؤه ولكنه واحد. وإذا الناس يفتحون أبواب قلوبهم وأفكارهم وبيوتهم لذلك الإله فلا يأكلون ولا يشربون، ولا يزوّجون ولا يتزوّجون، ولا يعملون ولا يستريحون، ولا يولدون ولا يموتون إلاّ باسمهِ وبمشيئته.

وكأن بصيرة الشرق إذ هدت العالم إلى اللّه حاولت أن تعطل بصره من قبل أن تفتح بصيرته. فكان من ذلك ردّ الفعل الفظيع الذي بدأنا نشهده في العصور الأخيرة. وأعني طغيان

البصر على البصيرة، فالبصر اليوم في مدّ والبصيرة في جزر. وكما استغرق مدّ البصيرة أجيالاً بل عصوراً طويلة، يستغرق مدّ البصر عصوراً طويلة، ولعلّ العصر الذي نحن فيه هو نهاية تلك العصور.

لقد كان من مدّ البصر أن حياة الإنسان المادية أخذت تنقلب من حال إلى حال بسرعة خاطفة، فنُظُمٌ تنهار ونظم تشاد، وحواجز تندك وأخرى ترتفع، وممالك تمّحي وغيرها يسطّر، ولآلئ تغدو حصىً وحصىً تغدو لآلئ. ما كان أمس حراماً يصبح حلالاً، وما كان حلالاً يمسي حراماً.

هوذا الإنسان يهزأ بالنسر في جوّه، وبالحوت في بحره، وبالأسد في عرينه. وهو يمنطق بصوته الأرض، ويحبس نور النهار في أسلاك يسلّطها على الليل فتمحو ظلامه. ويجترح من العجائب أشكالاً وألواناً في مختبراته العجيبة. ولا ينقصه – على حدّ قول البسطاء – إلا أن يخلق إنساناً نظيره ثمّ أن يغلب الموت.

حقّاً إنّه لتيّار هائلٌ جارف تتعالى أمواجه وتتدافع في كل ناحية. وفي تدافعها صخب الزلازل وعتوّ العواصف، مع شيء من بهجة الفصول، ورونق السماء، وسحر الفوز بالغنيمة، وجاذبيّة

القوّة الظافرة. فلا غرو إذا ما غمرت المعمورة وبهرت الأبصار، فهي بنت البصر وللبصر الحقّ أن يعتزّ بها، فهو ما أنجبها إلاّ لينعم بمواهبها وخدماتها.

لا غرو أن يقف العالم، وفي جملته هذا الشرق، مشدوهاً تجاه مدنيّة الغرب المبصر، وأن يهلّل لها ويكبّر، وأن يغفر لها كلّ زلاّتها، ثمّ أن يعقد عليها آمالاً أبعد بكثير من مدى سلطانها. فهي، على ما فيها من مرارة، غنية بالحلاوة التي لا يصعب على أيّ إنسان تذوّقها. لأنّها حلاوة يتذوّقها الحسّ. أما حلاوة المدنيّة القائمة على البصيرة فدون تذوّقها شق النفس وقهر الجسد. لذلك كانت الأولى أقرب إلى متناول الناس وأذواقهم من الثانية. ففيها - كما جاء في بعض الحكايات - «ما يُحَلّي ويُسلّي ويُعشّي الحمار». والحكاية - إذا كنتم تجهلونها - هي حكاية مُكارٍ معهُ حمار بلغ عند المساء فندقاً في الطريق فعزم أن يبيت ليلته فيه. ثمّ طلب إلى صاحب الفندق أن «يأتيه بشيء رخيص يحلّي ويسلّي ويعشّي الحمار» فما كان من صاحب الفندق إلاّ أن جاءه ببطيخة. فتحلّى بلبها وتسلّى ببذرها وعشّى حماره من قشرها.

ومدنية البصر للجماهير كتلك البطيخة لذاك المكاري. ففيها ما يدغدغ الذوق، ويسلي العين والأذن، ويلهي الإنسان عن

نفسه. مثلما فيها غذاء - أو بعض الغذاء - للبهيمة في الإنسان. أما القلب فتتركه فارغاً، وأما الروح فتعلقه على مشنقة الشك والحيرة والإبهام. إلاّ أنّها ذات قيمة من غير شكّ. فليس من الحكمة نبذها ومن الجهل المطبق التفتيش فيها عن التغذية الكاملة للإنسان الطامح إلى الكمال.

ذاك إذا ما أخذتموها من حيث هي تريد أن تؤخذ، أي من حيث محاسنها لا غير. أما إذا تفحصتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت ما بلغته هي من التكالب والتباغض والقساوة مع الكثير من التبجح بالعكس. وإما عجبتم لمشهد غريب فاعجبوا معي لهذا الشرق - وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي - يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر كسير القلب، ذليل الجفن، ضامر الصدر والبطن، ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه، ثمّ اسمعوه يستعطي بصوت متهدّج فيه الانسحاق، وفيه المسكنة والاندحار. وماذا عساه يستعطي؟ إنّه ليستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل. وإني لأسمعه يقول:

« من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة؟ وطيارة أو دبابة بسفر مقدس؟ بل من يقايضني مخترِعاً واحداً بعشرة أنبياء؟»

ما هذا، ما هذا؟ أبصيرة تستجدي بصراً؟ أشمس تستغيث بذبالة؟

أجل. إن بصراً نشيطاً لخير من بصيرة كليلة. وبصيرة الشرق حلّ بها كلال منذ أن بلغت من مدّها أقصاه. وإن ذبالة تشتعل لخير من شمس اعتراها الكسوف. وشمس الشرق حلّ بها كسوف منذ أن انكفأ الشرق على ذاته في جزره الطويل. إلاّ أن الكلال يزول بالراحة. والكسوف، من بعد أن يبلغ حدّه، ينجلي عن شمس كلّها نار وكلها نور. ومن ثمّ فالحياة - وهي أمّ التوأمين بالسواء، أم البصيرة والبصر، أمّ الشرق والغرب - ما درجت بالشرق إلى أسمى ذراه حتى عادت فدرجت بالغرب إلى أسمى ذراه. والذروتان ستلتقيان حتماً في ذروة واحدة هي ذروة الإنسان الموحّد والمالك زمام نفسه وزمام الأرض والسماء.

أما زمان الملتقى فلن ينقاد تحديد قربه وبعده إلى الذين يقيسون الزمان بالساعات والسنين، والفضاء بالأذرع والفراسخ. فهو قريب، وقريب جدّاً، لمن في بصيرتهم أبصار، وفي بصرهم بصائر. وبعيد، وبعيد جدّاً، لمن بصائرهم كفيفة وعلى أبصارهم غشاوات.

وإلى أن يكون الملتقى لا بدّ للشرق من وثبة بعد هجعة،

وللغرب من هجعة بعد وثبة. بل لا بدّ لذاك وهذا من وثبات بعدها هجعات.

وإني لأرجو لهذا الشرق أن تكون وثبته القادمة وثبة تجلو الغشاوة عن بصيرته وعن بصر أخيه الغرب. وثبة فيها القوّة دون البطش، والمعرفة دون الادعاء، والرفعة دون الكبرياء، والقناعة دون الخنوع، والإيمان دون التعصّب، والسلام دون الانتقام، والنور دون النار، والسكينة دون الاستكانة، وكيف لمن سيم الذلّ دهراً أن يسوم سواه الذلّ يوماً؟ ولمن ذاق طعم الفقر أن يشتهيه لغيره؟ لا يشبع من أجاع جاره. ولا يعلو من نَعله على عنق قريبه.

ما دامت البشرية على هذه الأرض دام شرقها في حاجة إلى غربها، وغربها في حاجة إلى شرقها. وكان ما يرفع الواحد يرفع الآخر، وما يحط هذا يحط ذاك. فما طار نسر بجناح واحد ولا صفقت يمينٌ بغير يسار.

شرق يقيم الاهداف وغرب يمهد السبيل إليها

لقد كان من هجعة الشرق بعد يقظته، ومن يقظة الغرب بعد هجعته، أن تبادر إلى أذهان كثير من الناس أن الشرق قد شاخ وهرم، وأن الغرب لا يزال في ميعة شبابه وعنفوان قوّته. فأصبح من شاء الكلام عن الاثنين لا يجد ما ينعت به الشرق

أفضل من الانحطاط، والجمود، والخنوع، والتفكّك، والتحجّر، والكسل، وفقر الجيب والقلب، وعمى البصيرة والبصر. ولا ما ينعت به الغرب أقل من النور، والعلم، والإقدام، والرقيّ، والحرية، والعدالة، والبأس، والشجاعة، والمروءة. فكأنّ الشرق بؤرة من الأوبئة القتّالة، والغرب فوّارة من البركات المحيية. أمّا الحقيقة فهي أن كلا التوأمين - الشرق والغرب - يجدّد شبابه كالنسر. ولن ينفكّا يهجع الواحد فينهض الآخر، وينكمش هذا فينبسط ذاك، حتى يبلغا بالإنسانيّة إلى حيث لا هجوع بعد نهوض، ولا انكماش بعد انبساط، بل وجود بغير شطوط، وحياة بغير عواصف.

والغريب أن أبناء هذا الشرق كانوا، وما برح الكثير منهم حتى اليوم، أفظع تنكيلاً بشرقهم من أبناء الغرب، وأشدّ إعجاباً بالغرب من رجال الغرب. فقد تسمعون في الغرب أصواتاً تجاهر بالتواء سبله، وإفلاس فكره، وفقر روحه بالنسبة إلى الشرق. ولا تكادون تسمعون في الشرق صوتاً يشيد بما فيه من كنوز القلب والفكر والخيال. وأغرب من ذاك أن هذه الكنوز عينها هي في نظر دعاة الغرب في الشرق السبب الأوّل والأخير في ما يدعونه انحاطاً وما هو بالانحطاط، وجموداً وما هو بالجمود، واحتضاراً

وما هو بالاحتضار. إن هو غير هدأة بين عاصفتين، وفجوة بين موجتين.

أصحيح ما يزعمه الزاعمون أن أنبياء الشرق قد جنوا على الشرق، وأن أديان الشرق هي أكبر آفات الشرق؟ أصحيح أن السماء قد شغلت الشرق عن الأرض، والآخرة عن الدنيا، وأن الاعتقاد بالقدر قد غلّ يديه، وشلّ فكره، وسدل حجاباً على عينيه؟ أصحيح أن الشرق مات لأنّه آمن بالإله الحي الذي لا يموت؟

لا. ثمّ لا. ثمّ لا. فالذي فعله الشرق حتى اليوم ما كان أكثر من وضع أهداف له وللعالم أجمع. وتلك الأهداف تتوحّد كلّها في هدف واحد هو هدف الكمال لهذا المخلوق الذي ندعوه إنساناً – هدف الانفلات من قيود اللحم والدم، والتغلّب على الحيرة وما في الحيرة من وجع، وعلى الموت وما في الموت من ألم، والتسلط على طلاسم الوجود، ثمّ الانطلاق في حياة لا حدود لها ولا قيود فيها يرف عليها سلام المعرفة، ويتألّق في جوّها بهاء الألوهة، ويندمج في قبضتها النقيض بالنقيض، ويتلاشى في فضائها الزمان والمكان.

وهذا الهدف قد نفذ إليه الشرق ببصيرته البالغة منتهى

النقاوة والصفاء في بصائر أنبيائه. فهو حقيقة لا مجاز. وهو رؤية لا رؤيا. وهو واحة حية لا سراب خدّاع.

أما أن الشرق بمجموعه ما بلغ ذلك الهدف بعد فأمرٌ لا نزاع فيه على الإطلاق. والقائل بعكس ذلك كالقائل بأن كلّ رجل في الشرق نبيّ وكل امرأة نبيّة، أو كالقائل بأن كلّ رجل في الغرب عالم أو مخترع وكل امرأة عالمة أو مخترعة. وفي ذاك ما فيه من السذاجة والبلاهة.

ليس يعيب منارة ألاّ يستنير بنورها الحارس الساكن في كنفها مثلما لا يعيب قمة نابتة في بقعة من الأرض ألا يتسلقها أبناء تلك الأرض. فهدف الشرق هو هو - حقيقة وضاءة ثابتة أبديّة - سواء أفي هذه الحقبة من حياته أدركه الشرق أم بعد حقب طويلة.

بل يكفي الشرق فخراً - إذا كان من مجال للمفاخرة - أنّه في فترة من حياته التهب حماسة لذلك الهدف واتقد إيماناً به، وتفانى في سبيل الوصول إليه. ولكنه أدركه العياء قبل الوصول. فانكفأ على ذاته، وراح يوصل ما تقطع من نياط قلبه، ويرمم ما انهار من عزمه، ويبحث في الثرى عن الثريا، فيفوته الثرى ولا يظفر بالثريا.

ذلك لأن الطريق المؤدي إلى ذلك الهدف طريق ليس يكفي

السالكين فيه أن يؤمنوا بالهدف وأن يتبركوا بأسماء واضعيه، وأن يتصدّقوا على متسوّل، ويطعموا جائعاً، أو أن ينقطعوا أيّاماً عن الطعام، أو أن يؤدوا فروضاً معلومة في المعابد.

إنّه لطريق ما عبّدته كثرة الأرجل بعد. والرعيل الأوّل من الإنسانيّة الذي قطعه إنما قطعه مشياً على القلوب لا على الأقدام، وعلى ضوء غير ضوء الشمس والقمر، وسواد الناس، شرقاً وغرباً، لا يزالون أطفالاً لا يحسنون المشي على أقدامهم حتى الآن فكيف بهم يمشون على قلوبهم؟ وهم يتعثرون في النهار فكيف بهم يسيرون في ظلمة دامسة؟

ما هو بالشنار على الشرق ألا يدرك الهدف بوثبة أو بوثبتين، أو في خلال قرن أو قرنين. فما هو بالهدف الذي يدرك بألف وثبة وفي ألف جيل. وإنما الشنار أن يقعد الشرق بمجموعه، من بعد أن وثب ولم يصل، قعدة اليائس البائس، قعدة المنهوك والمقهور، قعدة الخاسر الحائر، ثمّ أن يشيح بوجهه عن هدفه قائلاً إنّه خيال وإن الوصول إليه ضرب من المحال، وأن يدير وجهه شطر الغرب باحثاً هناك عن هدف وعن طريق.

أقول لكم: لا هدف للإنسان أبدع وأسمى وأقوى على الزمان من الذي نصبه الشرق وراح يدعو إليه الناس أجمعين، وهو

إذا ما تحجّب عن البصر المقنّع بألف قناع فلأنّه ابن البصيرة النيرة الصافية. وهو إذا ما عزّ مناله فلأن الكمال عزيز المنال. وهو حقيقة مثلما الوجود حقيقة بل هو الحقيقة قبل كل حقيقة وبعد كلّ حقيقة.

ثمّ أقول لكم إن الغرب لعاجز عن خلق مثل ذلك الهدف، بل عن خلق أي هدف للإنسان يقوى على الزمان وتقلّباته. ذاك لأن الغرب سائر على ضوء بصره. والبصر لا يثبت على حال لأن الأشياء التي يتناولها لا تثبت على حال. ولكن للغرب رسالته مثلما للشرق رسالته.

إن تكن رسالة الشرق البصير خلق الأهداف فرسالة الغرب المبصر هي تعبيد الطريق إليها.

تقولون: وكيف للغرب الذي لا يبصر هدف، الشرق ولا يؤمن به أن يعبّد الطريق إليه؟ وجوابي هو أنّه فاعل ذلك في كل ما يفعل، ولكن من حيث لا يدري ولا يقصد. وههنا الأحجية.

لقد حصر الغرب همّه في درس هذا العالم المحسوس والسنن التي يتمشى عليها. ثمّ راح يطبق ما اكتشفه من تلك السنن على حياته اليومية. فكانت علومه وكانت فنونه. وكان منها ذلك السيل من المخترعات والمكتشفات الذي لا يزال في

أوجه، والذي إذا ما بلغ يوماً حدّه فسيعود حتماً بالإنسان من المحسوس إلى غير المحسوس - أي من البصر إلى البصيرة، من المحدود إلى غير المحدود، من البدايات إلى اللابداية، ومن النهايات إلى اللانهاية. وذاك هدف الشرق بعينه.

أما ترون إلى العلم الذي هو دعامة المدنيّة الغربيّة والذي يدّعي ويجاهر أن لا شغل له إلاّ بالمحسوسات كيف أنه يبتدئ بغير المحسوس لينتقل منه إلى المحسوس؟

فالنقطة التي هي لا شيء تصبح مقياساً لسائر الأبعاد، وأساساً للهندسة العملية. والواحد الذي ليس سوى خيال بحت يصبح الأوّل والآخر في جميع المعادلات الرياضية، والمعادلات الرياضيّة التي تقوم عليها فصيلة العلوم الطبيعيّة تنقلب ناطحات سحاب وجسوراً وبواخر وطائرات ومولدات للكهرباء، والكهرباء التي ما كنّا نلمحها إلاّ كبرق في الفضاء تسيَّل نوراً وطاقة في أسلاك من النحاس، أو تسير أمواجاً في الأثير تنقل أصوات الناس إلى الناس وأخبار الناس إلى الناس من أقاصي المشارق حتى أقاصي المغارب.

فلا نكران إذن أن للعلم الحديث كما رتّبه ونسّقهُ وروّجهُ الغرب فضلاً عميقاً على الشرق والغرب معاً. فهو، من حيث لا

يقصد، دائب في نقل ما لا يحسّ إلى حيز المحسوس، أو ما كان ضمن دائرة البصيرة إلى دائرة البصر. ولأن معظم الناس - خاصتهم وعامّتهم - لا يؤمنون بالكهرباء إلا أن يبصروها نوراً في بيوتهم، ولا بالشيء إلاّ أن يلبسوه ثوباً على أجسادهم أو يمضغوه تفاحة بأضراسهم، لذلك كان للعلم الحديث هذا الأثر البالغ في عقولهم وحياتهم وكانت للغرب هذه المنزلة في ضمير الشرق.

ثمّ لا نكران أن الغرب قد سهل على الإنسان أمر المعيشة بفضل ما استنبط من حيل ميكانيكيّة، وما توصّل إليه من خيرات كانت دفينة في الماء والتراب. وإذا ما أعوزته اليوم الحكمة لخلق نُظُم لا تحرم البعض وتبلو البعض بالتخم، فالحاجة التي لا ترحم ستعلّمه في الغد ما ليس يعلمه اليوم، وستساعده على خلق عالم لا ينفق جلّ حياته في السعي وراء ما يلهي به بطنه ويستر عريه ويحمي جسده من نقمة العناصر. ومتى انعتق الناس من كابوس القوت والكساء والمأوى أصبح في إمكانهم الانصراف إلى تسكيت جوع غير جوع البطن، وتستير عُرْيٍ غير عري الجسد، والتفتيش عن مأوى يحميهم من نقمة أنفسهم التي لن ترضى بمأوى غير حضن اللّه.

وثمة منة ثالثة للغرب لا بدّ من ذكرها. وهي أن هذا السيّار

الذي يعلم اللّه كم دار بنا وكم سيدور في فيافي الفضاء، كان إلى عهد قريب عالماً مترامي الأطراف، كثير المجاهل، وعر المسالك، عديد الألسن، وفير الصبغات، متضارب النزعات. أمّا اليوم فقد أصبح بفضل الغرب ومخترعاته كرة تكاد تحتويها قبضة الطفل. فالطيارة قد محت الأبعاد والمجاهل، والحدود والحواجز.

وهذه الآلة العجيبة التي أخاطبكم بواسطتها الآن قد وصلت كلّ لسان أينما كان بكلّ أذن أينما كانت. وعلاوة على ذلك فالمدنيّة الغربيّة قد أحدثت حاجات كثيرة وخلقت أزياء كثيرة يشترك فيها ابن الشمال مع ابن الجنوب، وابن الغرب مع ابن الشرق. حتى ان سائحاً ليكاد يسيح اليوم حول الأرض في أقلّ من أسبوع من غير أن يحتاج إلى دليل أو ترجمان. وقد كان لا ينتقل من قرية إلى قرية، حتى في القطر الواحد إلاّ بمضّ الفكر والقلب والعصب.

هكذا نرى الغرب، بعلومه وفنونه، ومخترعاته ومكتشفاته وحتى بحروبه، يصل الأرض بعضها ببعض. ومن حيث لا يدري يمهّد السبيل لضمّ الإنسانيّة المبعثرة الشمل أسرة واحدة يجمعها بيت واحد وتقودها إرادة واحدة إلى غاية واحدة. وذاك ما نادى به الشرق من زمان. أما قال: أحب قريبك كنفسك؟ أما قال:

عامِلهُ بمثل ما تريد منه أن يعاملك؟ أما قال: إن الناس كلهم عيال اللّه؟

وعندما تبلغ علوم الغرب المادية أقصى مداها، عندما تفلق الذرة أو ترتد عاجزة عن فَلقها، ستراها وجهاً لوجه مع ما يجعل المادة مادّة وليس بمادّة - مع القدرة التي أسماها الشرق اللّه ورفعها هدفاً للإنسان المخلوق على صورتها ومثالها. وبكلمة أخرى، سينتهي الغرب من المحسوس إلى غير المحسوس. وبذاك تنتهي مهمّته في هذه الدورة من حياة الإنسانيّة وتبتدئ من جديد مهمّة الشرق.

ومهمة الشرق إذ ذاك، وقد مهّد الغرب له الطريق إلى الهدف، هي جلاء ذلك الهدف كيما يظهر في كلّ بهائه، نقيّاً من السفاسف والترّهات التي حجب الجهل بها سناء وجهه باسم اللّه والدين وما هي من الدين واللّه لا بخمرٍ ولا بخلّ. ثمّ لمّ شعث الإنسانيّة التائهة ما بين بصرها وبصيرتها، وبثّ النشاط في مفاصلها المفككة، وبعث الإيمان الدفين في قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله، ثمّ السير بهذه الإنسانيّة المتجددة نحو هدفها بخطى لا تردّد فيها، وعزم لا التواء فيه، وإرادة تعرف ما تريد، ولا تريد غير ما تعرف، فلا يقهرها شك، ولا يثنيها عياء.

غرب حاكم وشرق محكوم

من الأوهام المسيطرة على عقول الناس - وما أكثرها! - وهمهم أن في مستطاع إنسان أن يحكم إنساناً من غير أن يكون محكوماً منه. والواقع أنّه ما قامت علاقة بين مخلوق ومخلوق إلاّ كان فيها شركة للاثنين، وكانت حصة الواحد معادلة لحصة الآخر.

فأنتم ما اغتذيتم بلحم الأرض ودمها إلا غذيتموها بلحومكم ودمائكم. ولا استخدمتم بهيمة إلاّ كنتم خدامها. ولا ملكتم شيئاً إلاّ ملككم. ولا حكمتم إنساناً إلاّ حكمكم.

هل عرفتم ربّ أسرة ما تحكّم فيه كلّ فردٍ من أفراد عائلته، حتى الذي ما برح مقمّطاً في المهد؟ أو هل سمعتم بقائد قاد جيشاً وما قاده جيشه؟ أو هل قرأتم من كتاب إلاّ على قدر ما قرأ ذلك الكتاب منكم؟

لا يستطيع حاكم أكثر ممّا في استطاعة محكومه. فقدرة المحكوم هي قدرة الحاكم. وإذ ذاك فما معنى هذه الهالة من الجلال والعظمة والسؤدد والرفعة والسعادة تنسجها أوهام الناس حول هامات حكامهم، ولا تجد غير الذل والحقارة والصغارة والطاعة العمياء ونكران الكرامة تنسج منها أقنعة لأبصار محكوميهم؟

إن يكن في الحكم جلال فهو جلال المحكوم قبل أن يكون

جلال الحاكم. أو تكن فيه صغاره فهي صغارة الحاكم والمحكوم بالسواء.

وما علاقة الحاكم بالمحكوم سوى علاقة طارئة تفرضها أحوال طارئة من عالم خفيّ ما توصّل الإنسان بعد إلى الوقوف على أسراره والسيطرة على منابعها ومجاريها. فحاكم الأمس يصبح محكوم اليوم. ومحكوم اليوم يغدو حاكم الغد، لا كسباً لشرف، أو امتهاناً لكرامة، بل امتثالاً لمشيئة البشرية الخفية في سيرها نحو المثل الأعلى، وتحقيقاً لرغبات في نفسها لا تزال أبعد من متناول مداركها وأعمق من نفوذ وعيها.

والسرّ في عدم ثبات الحكم البشري وسرعة تنقّله من يد إلى يد، ومن فئة إلى فئة، ومن شعب إلى شعب، إنما هو في النفس البشرية، وما في زواياها الغريبة من خبايا عجيبة.

إنه لمن الصعب أن تسوق قطيعاً من الغنم بعصاً واحدة. فلا بدّ ولو من كبش واحد يتمرد على عصا الراعي وصوته. فكيف بقطيع من البشر تسوقه بعصاً واحدة، وإلى الأبد؟

أما كان فرعون سيّد مصر المطلق يوم جاءته ابنته بلقيط حظيت به على ضفة النيل فربّاه في قصره؟ وذلك اللقيط جرّ فرعون ومركباته فيما بعد إلى مدفن من الأوحال في قعر البحر الأحمر؟ فأيّ

الاثنين كان حاكم الآخر؟ أفرعون كان حاكم موسى، أم موسى كان حاكم فرعون؟ ومن أين كان لفرعون أن يعرف القوى المدفونة في نفس موسى والغاية التي ندبتهُ لها المشيئة الكلية؟

أما كانت رومة الحاكمة المطلقة في الجليل واليهودية يوم وُلد ابن مريم ويوم راح يبشر بملكوت اللّه! وها هي ذي بشارة ابن مريم لا تزال ماشية من فم إلى فم ومن قلب إلى قلب، فأين رومة وجحافل رومة؟ أكانت رومة حاكمة الجليل أم كان الجليل حاكم رومة؟ ومن أين كان لرومة أن تتكهّن بما ستنفتح عنه شفتا الطفل المولود في مذود للبهائم في بيت لحم؟

أما كانت قريش سيدة لا يناهضها مناهض في مكّة يوم قام يتيم لا سلطان في يده يدعو الناس إلى الإله الأوحد؟ وأين اليوم سلطان الذين اضطهدوه وقاتلوه من سلطانه؟ أكانوا هم حكامه أم كان هو حاكمهم؟ ولو درت قريش يومذاك بما انطوى عليه قلب ذاك اليتيم من قوى وأسرار لخرّت أمامه صاغرة بدلاً من أن تتصدّى له بسوء.

والآن ماذا عساكم تقولون فيمن يقول لكم إن مشكلة الحكم ما بين الشرق والغرب ليست بالمشكلة التي تتوهمون. فالغرب لا يحكم اليوم الشرق أكثر ممّا يحكم الشرق الغرب.

لكنما المؤسف والموجع في هذا الحكم ألا يكون فيه ما يشرّف أو يمجّد الاثنين. فهو لا يقوم على مودّة وأخوّة ومحبّة حرية بأن تربط التوأمين. بل على منافع موهومة تذروها الأيّام والليالي فإذا بها حسك ولا حَبّ، وإذا بها ألعوبة للرياح.

ومن ثمّ فأي حكم دام وأيّ حاكم تمكّن يوماً من سبر أعماق محكوميه والوصول إلى كلّ ما في أغوارها من قوى هاجعة تتململ للوثوب؟ وإن هو لم يتمكن من ذلك فبماذا وكيف يصون حكمه؟ ومن يدري بماذا حبل هذا الشرق في غضون هجعته الطويلة وبماذا يتمخض اليوم؟

إنّه لا شكّ يتمخّض بأمور أعجب وأعظم بكثير من التي يحلم بها أبناؤه ويحسبونها من خطر الشأن في أعلى مكان. فهم يحلمون - في جملة ما يحلمون - بعنقاء يدعونها الاستقلال. ويتوهمون أنّهم إذا ما ظفروا بها يوماً ظفروا بالغبطة التي ما بعدها غبطة.

ألا ليت الاستقلال كان ما يتوهمون. ألا ليتهُ ما كان أكثر من استبدال حكم بحكم، ووجه بوجه، ولسان بلسان.

ألا ليته كان يُنال - كما يزعمون ببذل الفلس والدم، إذن لما كان أغلاه نعمةً يبتاعها الناس بمثل ذلك الثمن الزهيد.

لكن الاستقلال غير ما يزعمون. فما استقلّ إنسان وفي قلبه من الضغائن بثور ودمامل، وفي فكره من المخاوف ديجور فوق ديجور. ولا استقلّ من كان الفلس في جيبه سيده وأميره. ولا من كان مقوده في يد غير يده.

وأيّ أبناء هذا الزمان، أيّ شعوبه، أيّ أمصاره يستطيع القول بأن مقوده في يده؟ ألعلّ لا حاكم للإنسان إلاّ الإنسان؟ إذن أين أنتم من الموت؟ أو من الطبيعة التي إذا ما فتحت كفها فوق حاجاتكم أغرقتكم. أو أمسكتها دون حاجاتكم خنقتكم؟ بل أين أنتم من الذبابة والبعوضة والجراثيم التي لا تبصرونها تقضّ عليكم مضاجعكم وتعتّم حتى النور في أبصاركم؟

إن تكن تلك حالكم مع أنفسكم ومع غير الناس فكيف بحالكم مع الناس؟ من منكم ليس محكوماً من نسيب أو حبيب، أو صديق أو عدوّ، قبل أن يكون محكوماً من رئيس دولة وقاضٍ وشرطيّ؟

ما من مناص للإنسان من الإنسان وحكم الإنسان. وكذلك الشعوب - ما تجانس منها وما تخالف، وما تصادق منها وما تعادى - لا مناص لأي منها من أن يكون حاكماً ومحكوماً في آن واحد. ومن خيّل إليه العكس - ومن توهّم أن في

مستطاع قبيلة أن تسود إلى الأبد من غير أن تكون مسودة - كان في حاجة لا إلى الاستقلال، بل إلى طبيب عقول وطبيب أبصار. لأنّه ما فقه من عبر التاريخ أبسطها وأقربها إلى العقل والبصر. وهي أن دولاب الزمان ما ينفكّ يدور. وأن البشرية العالقة به لا بدّ من أن يعلو بعضها هنا وينخفض هناك. ثمّ لا يلبث المنخفض أن يعلو والعالي أن ينخفض. فصبغكم الدولاب بالدم البشري لن يسرع في دورانه لحظة ولن يبطئ لحظة.

وبعد ذلك فالدم البشري دم زكيّ طاهر، فهو الإناء الحامل جرثومة الحياة المباركة والفهم المقدس. ومن الحرام أن يُهراق إلاّ في سبيل الحياة والفهم، بل من الإثم أن يُهدر بغير حساب على حدّ ما يُهدر اليوم ترضية لأهواء يثيرها الجهل ويسوقها الموت. ولا بدّ لهذه الإنسانيّة المفصودة بمفاصد البغض والجشع من صوت يهيب بها إلى حقن دمائها الزكيّة والاحتفاظ بما تبقّى منها لغايات أنبل وأسمى من استبدال حكام بحكام، وتخوم بتخوم، وأوبئة بأوبئة.

إن هذا الصوت سيخرج من الشرق - من هذا الشرق الذاهل اليوم عن نفسه وما في أعاليها من قمم باسقة وفي اعماقها من أبعاد. وعن رسالته العلوية وما في رسالته من بلسم لجراح الإنسانيّة الدامية ومن نور لأبصارها القرحة وبصيرتها الكفيفة.

اي، ثمّ اي، من هذا الشرق ستندفع أمواج ذلك الصوت إلى أن تغمر الأرض، من هذا الشرق المنكوب بأبنائه أشدّ من نكبته بغير أبنائه، فهم يتطلبون له أمجاداً غير مجده، والأمجاد التي يتطلبونها هي التي جعلت من الأرض مسلخاً، ومن الإنسان قصاباً لأخيه الإنسان، ومن حياة الناس مجزرة هائلة ومقبرة شاسعة. هي دفعات من السموم التي أفسدت على الناس دماءهم ولحومهم، ونخرت عظامهم، فصرفتهم عن نفوسهم وعن ربهم.

أمّا مجد الشرق الحقيقي فسيكون في أنّه لن يطلب مجداً على الإطلاق، بل يقول مع الناصري: «من أراد منكم أن يكون سيداً فليكن للكلّ خادماً.» أجل. سيكون الشرق خادم العالم. وسيخدم الإنسان أينما كان لا بتحريره من حكم جاره. بل بتحريره من حكم نفسه. فما ساد مَن كان عبداً لنفسه وإن حكم الشرق والغرب. ولا ذلّ من ساد نفسه وإن كان محكوماً من الناس أجمعين.

ولو قال لي قائل إن الشرق سيفعل غير ذلك أو أقلّ من ذلك، وإنّه لن يتمخّض من بعد هجعته الطويلة بأكثر من حكومات جديدة وتخوم جديدة، لأنكرت هذا الشرق ولصرخت من أعماق قلبي: «ألا ليته ما حبل ولا تمخض!»

غير أني واثق بأن المولود العتيد أن يأتي به الشرق، سيكون أعظم من كلّ ذلك بما لا يُقاس، فالشرق أخصب فكراً، وأسمى خيالاً، وأسمح قلباً من أخلص المخلصين من زعمائه، فكيف بغير المخلصين؛ والشرق أصلب عوداً، وأبعد جذوراً في تربة الوجود من أن تلويه سياسة أو يقتلعه إعصار.

وإن تسألوني عن ثقتي بهذا الشرق من أين منبعها أجبكم: من الحكمة التي فاضت على لسانه من زمان، والتي يبلى الزمان وجدّتها لا تبلى، وتبور كلّ سلطة وسلطتها لا تبور. وهذه الحكمة لن يجلوها من جديد إلاّ الشرق ولن يحسن الحكم بها إلاّ الذي خلقها من نفسه ثمّ حكّمها في نفسه. فلها ستكون السيادة في العالم المزمع أن يولد، وعلى حَدوها ستمشي قوافله جيلاً بعد جيل.

غرب يغرب وشرق يشرق

كانت الحرب الماضية خاتمة لعهد وفاتحة لعهد من حياة البشرية على سطح هذي الأرض. فبدخولها دخل الغربُ دور التصفية فأخذت أمواجه في الانكفاء. ودخل الشرق دور التعبئة فأخذت أمواجه في الامتداد.

وما الحرب التي نَنوء بكابوسها اليوم غير مرحلة من مراحل هاتيك التصفية وتلك التعبئة. ومَن ظنّها الأخيرة كان على ضلال

مبين. فحياة البشرية، ما كرّ منها وما برح ملفوفاً على بكرة الزمان، أطول من أن تُقاس بحركات عقرب في ساعة. وأدوارها لا تتعاقب بسرعة الليل والنهار. فالفجر الذي يفصل دوراً عن دور قد يطوي من الأجيال أكثر من واحد أو اثنين.

وها نحن في طليعة فجر ينذر بانتهاء دور ويبشر بابتداء آخر. أما كَمْ يطول هذا الفجر. ومتى ينجلي عن صباح جديد ونهار جديد - أفي هذا الجيل أم في الآتي؟ - فجواب ذلك ليس عندي، بل عند مَن «ألْف سنة في عينيه كيوم أمس العابر، وكهجعة من الليل.»

وسواء أطال ذلك الفجر أم قصر فالأمر الذي لا شك فيه هو أن ما تشهدونه اليوم من غليان في العالم وفوران، وما تسمعونه من فحيح وجلبة ليس سوى حشرجة مدنيّة تحتضر، ووعوعة مدنيّة تقتبلها الأقدار من رحم الأيّام التي ما تنفك حبلى وما تنفكّ تولّد.

إنّ ما وقع للشرق في سالف الزمان لشبيه كلّ الشبه بما هو واقع للغرب في هذا الزمان. فمثلما امتدت مدنيّة الشرق - وأساسها الدين - إلى أن غمرت المعمورة بأسرها، كذلك امتدت مدنية الغرب - وأساسها العلم - إلى أن طغت على كل أمة

وبقعة من أمم الأرض وبقاعها. وحالُ دين الأنبياء والأصفياء من بعد أن انحدر إلى الدهماء والغوغاء، وقد احتجبت أنواره في دياميس من الخرافات والترّهات، وتكسّرت أمواجه على سدود من التعصّب الكافر، مثل حال عِلْم العلماء، وقد تناولته ألسن الجهلاء وأيدي المستثمرين والنفعيين، فأصبح منجنيقاً لهدم كلّ عِلم عداه، ومهمازاً لكل هوًى طائش، وشهوةٍ جموح، وبوقاً للتبجّح في فم كل زعنفة ما أهّلته الحقيقة أن يرى وجهها سافراً.

إن في الكون الذي نحن بعض منه أسراراً لا يزال العقلُ بعيداً جدّاً عن الوصول إلى كنهها - وفي جملة تلك الأسرار سرّ التوازن. ولعلّه من الكون بمثابة حجر الزاوية من البناء. فالمسكونة بكلّ ما فيها - ما ظهر منها وما استتر - في توازن أبديّ. وحيثما طرأ أقلّ اختلال في توازن أقلّ عضو من أعضائها أصلحته في الحال. أما الوسائل التي تلجأ إليها لتقويم الخلل في توازنها فأكثر من أن يحصيها عدّ، وأبعد حكمة من أن يدركها عقل.

ما زلزلت الأرض زلزالها، ولا كان كسوف أو خسوف، ولا تطايرت الشهب في الفضاء، ولا هبّت عاصفة، أو انهمر سيل، ولا كان بحر بمدّه وجزره، ولا يابسة بجبالها وأوديتها إلاّ لحفظ التوازن الكوني من خلل طارئ، ولا يابسة بجبالها وأوديتها

إلاّ لحفظ التوازن الكوني من خلل طارئ. كذلك هي الحال في عالم الإنسان. فلولا خلل يطرأ على توازن كل منّا بمفرده لما عرفنا المرض ولا الوجع ولا الموت ولا المصائب بأنواعها.

ولولا خلل يطرأ على توازن الأمة لما عرفت القلاقلَ والثورات والمجاعات والتعسف والظلم والانحلال.

ولولا خلل يطرأ على توازن الإنسانيّة بأسرها لما كانت الحروب والأوبئة، والاضطهادات والتقلبات في أنواع الحكم ووجهة النظر.

ولكن حذار أن يتبادر إلى ذهن أحد منكم أنّني أبارك الموت والوجع والثورات والأوبئة والحروب لأنّها بعض من الأساليب التي تلجأ إليها الحكمة الأولية لحفظ التوازن في عالم الإنسان. أجل. انها لدليل على وجود تلك الحكمة. ولكنها، في آن، دليل على جهل الإنسان لسر التوازن والحكمة التي أوجدته. فلا سبيل للإنسان، إذا ما شاء الانعتاق منها، إلاّ الانصراف بكلّ قواه الجسدية والروحية إلى تفهم ذلك السرّ والوقوف على تلك المشيئة التي جعلت منه حجرَ الزاوية في بنيان الكون، وبنيان حياة الإنسان.

أما قصدي من الكلام عن هذه الأمور فليس أكثر من أن أمهّد تمهيداً سريعاً للفكرة التي هي نواة حديثي، والتي تدور حول

اختلال التوازن ما بين الشرق والغرب، وهما توأما البشرية، بل ساعداها، بل الكفّتان في ميزانها. وهذا الاختلال في التوازن قد بدأ يقلب مدّ الغرب إلى جزر، وجزر الشرق إلى مدّ، وطلائع هذا الانقلاب ليست بخافية عن كل ذي بصيرة.

لما حمل الشرق مشعل الدين إلى العالم حصر جلّ همّه في قلب الإنسان وما انطوى عليه من الأشواق المحرقة لمعرفة مَن هو، ومن أين، وإلى أين، ولماذا؟ أما عقله فقلّما أعاره اهتماماً. والعقل هو الدرجة الأولى في سلّم المعرفة. فكأن الشرق حاول أن يبلغ بالإنسان أعلى درجة من سلّم المعرفة من غير أن يطأ الأولى.

لئن كان ذلك في مستطاع الأنبياء والرسل والأولياء فما هو في مستطاع الذين لا يبصرون من العالم ما كان أبعد من أنوفهم، والذين لا يؤمنون إلاّ بما يبصرون. وهم سواد الناس.

لذلك نام العقل، ولكن على مضض. فما إن دار الزمان دورته، وفترت الحماسة الدينيّة، حتى أحسّت البشرية خللاً في التوازن بين قلبها وعقلها. فتنبه العقل وراح يطالب بقسطه من حياة الإنسان. وحمل الغرب راية العقل، وأجلسه على عرش من الوقار، وانبرى يناضل باسمه. ومن هذا النضال انبثقت المدنيّة التي عشنا وما نزال عائشين في كنفها طوال هذه الأجيال.

غير أن هذه المدنيّة، لشدة مغالاتها في الأمانة للعقل واندفاعها في خدمته، قد أهملت القلب البشري وحنينه الأبدي إلى ما وراء المعقول والمحسوس. فهي قد صرفته، أو حاولت صرفه، عن الدين، ولكن من غير أن تعطيه جواباً أفضل من جواب الدين على أسئلته الملحّة: من أنا؟ ومِن أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ فما إن بلغت أقصى مداها حتى عادت البشرية فأحسّت من جديد خللاً فظيعاً في التوازن بين عقلها وقلبها. وعادت الحكمة التي لا تُحَدّ تصلح ذلك الخلل بشتى الوسائل من ظاهرة وخفيّة. ومنها هذه الحرب التي يكاد الناس يغرقون في غمارها ويختنقون بدخانها.

وكأنّي كلّما أنصتّ في هذه الأيّام إلى قلب الإنسانيّة الدامي سمعته يخاطب عقلها فيقول:

«ألا بوركتَ يا أخاه. فلقد جئتَ حقّاً بالمعجزات. لقد خرقت حرمة الأعالي. وفضضت بكارة الأعماق. وحشرت أجرام السماء في عدسية مرقبك. وفضحت أسرار الجراثيم بعين مجهرك. واتخذت من البرق رسولاً لأفكارك. وجعلته قنديلاً في دارك.

«ولقد أرحت الثور من نيره، والجواد من مركبته،. والحراث من محراثه، والحطّاب من فأسه، والحداد من كوره ومطرقته وسندانه.

«ولقد دخلت بسحرك جوف الأرض فقرأت تاريخها في ما سطّرته الدهور على صخورها وطبقاتها. ثمّ أكرهتها على التخلّي لك عن الكثير من دفائن كنوزها.

«ولقد خلَقْتَ المطبعة واتخذت من دواليبها رسلاً تذيع سحرك في الناس وتجعله حلالاً لكلّ راغب وطالب دون ما تمييز بين خاصّة وعامّة.

«ولقد بنيت للناس معاهد يستظهرون فيها علومك، وينعمون بفنونك، ويتذوّقون سحرك، ويحرقون لك البخور، ويسبحونك ويمجدونك.

«ولقد شيّدت للناس بيوتاً يداوون فيها أوجاع أبدانهم وعقولهم. فإن نجع الدواء كان الفضل لك. وإن لم ينجع كان اللوم على الأبدان والأقدار، لا عليك.

«أجل. لقد فعلت كلّ ذلك من اجل الناس، وفعلت أكثر من ذلك يا أخاه. ولكنك بعت نفسك والناس من مخلوق عجيب خلقته ليكون خادمك وخادمهم، فإذا به يصبح سيّدك وسيدهم من غير منازع. فوا عجبا لمخلوق فاق خالقه. ولعبد ساد سيده! أما اسم ذلك المخلوق فالدرهم.

«فبالدرهم تباع رحمتك للموجوع، ويا ليتها كانت رحمة.

ومعرفتك للجاهل، ويا ليتها كانت معرفة. وخبزك للجائع، وعطفك لليتيم، وقراك لابن السبيل، ودفؤك للمقرور، وثوبك للعريان، وحريتك لابن السبيل، وعدلك للمظلوم، وسلوك للمفجوع. ودرهمك لا ينال إلا ببذل ماء الوجه، وسفح دم القلب، وانفاق الدماغ، وإرهاق العضل، وتخدير الضمير، وحرق فتيلة العمر بلا شفقة ولا حساب.

«وهكذا أصبحت يا أخي ألعوبة في يد مخلوقك العجيب. وأصبح مَن والاه مخلوقك سيّد الناس، وإن يكن أشدّهم فتكاً بالناس. وأصبح مَن جافاه مخلوقك عبداً للناس، وإن يكن أشدّهم غيرة على خير الناس، وأعرفهم بالسبل المؤدية إلى سعادتهم. ورحت تأتمر بأمر الدرهم. فإن قال لك اخترع لي ما أُلهي به الجائع عن جوعه، والعبد عن حرّيته، وما أسلّي به أخا الضجر والبطر، وما أخدع به طالب الجمال والكمال - اخترعت له في الحال من الملاهي ما يلهي حتى الحمار عن علفه، ومن الملذات ما يخدّر الوجدان، وخلقت لطالب الجمال والكمال تمائم دعوتها الفنون، ولطالب المعرفة تعاويذ أسميتها سنّة النشوء وتنازع البقاء، وبقاء الأنسب. وخلقت لناشد الحرية والاستقلال تعاويذ سواها دعوتها الوطنيّة، والقوميّة، والجنسيّة، وشرف المحتد

واللسان، وعلّقتها كلّها بحواشي خرقة ذات ألوان، وقلت للناس: ها هو رمز حريّتكم واستقلالكم. فافدوه بدمائكم - فآمن الناس بما قلت وبما فعلت وراحوا بدمائهم يَشرَقون.

«وأما أنا - أنا القلب الذي ما انفكّ ينبض منذ كان الزمان وكان الإنسان - فأسألك: مَن أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ فلا تسمع ولا تجيب. وأشكو إليك أوجاعاً تتأكّلني من غضب وبغض وحقد وحسد وطمع وفجور وقلق وذعر وشكّ وحيرة فلا تتعطّف عليّ بدواء سوى التمليق والتخدير.

«وأُسرّ إليك أشواقاً تساورني في هدأة الليل وضوضاء النهار إلى حياة لا محاباة في عدلها، ولا مواربة في صداقتها، ولا مخاتلة في إخائها، ولا شناعة في جمالها، ولا باطل في حقها، ولا خوف في قلبها، ولا موت في مفاصلها. إلى كيان لا يبتدئ هنا وينتهي هناك، بل تضيع في جوانبه البدايات والنهايات، وتغور في أعماقه الفواصل والمتناقضات، وتتلاقى في فضائه سائر الكائنات. فلا نزاع ولا صراع. بل فَهمٌ يترفّع عن النزال، ومحبة لا تتدنّس بالقتال.

«أُسرّ إليك أشواقي فتسخر بها وتدعوها أضغاث أحلام. وأنا أعْرَف منك بها وبمصادرها. وإنّي لعلى يقين من أنّني ما اشتقت

شيئاً إلاّ كان له في كياني كيان. فلو أنّه كان عدماً لاستحال عليّ أن أشعر به وأن أشتاقه. ففي جوعي الدليل على وجود الغذاء. وفي عطشي الدليل على وجود الريّ. ولكن مسالكي قد استعصت على علمك وسحرك. فما نالني من طعامك غير الجوع. ومن ريّك غير العطش. ومن نارك إلاّ البرد. ومن نورك إلاّ الظلمة.

«لقد تسلّمتَ يا أخي قيادة الناس زماناً ليس باليسير. فأحسنت وأسأت. لكنك أسأت أكثر ممّا أحسنت. وها هي ذي البشرية لا تنهض من حفرة إلاّ لتقع في أخرى. ولا يلتئم لها جرح حتى ينفتح في جسمها ألف جرح. وإني لأسمعها في خلواتها وصلواتها تستغيث بي. فتنحّ وناولْني الأعِنّة!»

بمثل هذا الكلام أسمع قلب الإنسان المفجوع بآماله يخاطب عقله المغرور بأوهامه. ولا عجب. فالتوازن بين الاثنين قد اختلّ إلى درجة لا تطاق. فلا بدّ من تعديله وتصحيحه.

وإني لأبصر أعنّة البشرية التائهة ما بين سمعها وبصرها تنتقل من يد الغرب - وهو توأمها الماشي على ضوء البصر - إلى يد الشرق - وهو توأمها السائر على هدى البصيرة. وإني لأرى هذا الشرق يعبئ قواه منذ الآن للقيام بمهام القيادة الملقاة إليه.

والذي يعبّئه الشرق لن يكون بإذن اللّه جيوشاً برية تحمل

النقمة والثأر، ولا عمارات بحرية تزرع الويل والدمار، ولا أساطيل جوية تمطر الناس كبريتاً وناراً. بل سيكون بلسماً لجراح الإنسانية الدامية، ودعامة لما تصدّع من إيمانها بالعدل والأخوّة، وطعاماً وريّاً لما جاع وعطش فيها إلى السلام الذي لا ينام على الأسنّة والشفار، والحرية التي تأبى فوهة المدفع مسكناً لها، والحقّ الذي يُغيث ولا يستغيث.

وإذ ذاك فما على الشرق إلاّ أن يدير وجه البشرية شطر الهدف الذي أدارت له قذالها من زمان. فهدف الشرق ما برح وضّاح الجبين والسلّم الأوحد الواصل ما بين الأرض والسماء. والمنارات القائمة على جانبي الطريق المؤدي إليه ما تزال تشعّ القوّة والإيمان لكل قلب جسور ينشد الحق الأبدي، ولكل روح مقدام يحنّ إلى مواطنه الفردوسية بما فيها من حياة لا تبلى، ونور لا يخبو، وحرية لا يطوّقها زمان ولا يحصرها مكان.

حكاية دمعة

أفقت ذات صباح من هذه الأصبحة المغمى عليها من صرير اليراع، وشقشقة المدفع، وثرثرة الأثير، وإذا بي أُحسّ في العين دمعة تلجّ في الانفلات من قبضة الجفن فما تجد إلى الانفلات سبيلاً. ذاك لأنّي منذ صباي زجرت عيني عن البكاء وحرّمت على جفني التكحّل بملح الدموع. ولقد خاطبت عيني يومئذ هكذا:

«ما الدمع، يا عين، سوى دم أفسده الضعف فحوّله ماءً مليحاً. أما الأقوياء فيضنون بالدم الأحمر ترسله الأجفان فوق الخدود ملحاً وماءً. وماذا عسى الباكين يبكون غير قلب خائر، وفكر كفيف، وخيال كسيح، وإيمان مهيض بالعزّة التي كورت العين كوّة للنور لا فوّارة للدموع؟ والدمع يحجب النور نظير ما يحجب الليل النهار. فلا يكوننّ لنا، يا عين، متكأ في مجالس الباكين والنائحين.»

وخاطبت جفني هكذا:

«وأنت يا جفن، كن حارس العين الأمين. وحذار أن تفتح الباب لدمعة مهما ألحفت في القرع والنداء. فهي إن أفلحت في اجتياز العتبة كانت شاهد سوءٍ عليّ وعليك. وما كان لشهادتها مردّ. وإن أنت أحسنت الحراسة أحسنت إلى نفسك وإليّ يوم الحساب الأخير.»

وكان أن اقتنعت عيني وآمن جفني بما قلت. فتعاهدنا عليه، وعشنا طوال سنين كثيرة نسينا في خلالها لحن البكاء وطعم الدموع.

لذاك دهشت - وأيما دهشة - إذ سمعت العين والجفن يعاتبانني منذ أيام عتاباً مرّاً. فالعين - وكأنّها نسيت ما كان بيننا - تلحّ في إرسال دمعتها. والجفن - وكأنّه ملّ الحراسة - يطالبني بفكّه من عهوده. فما وجدت لي مناصاً من الاذعان. لكنني أسفت للدمعة الملحاح تذرفها العين إلاّ لأمر جلل خطير. فما من شكّ أنّها كانت دمعة ولا كالدموع، لا سيما وقد حَبِلَت بها العين بعد جفاف طويل. فكأنها إسحق حبلت به سارة بعد عقم دام عمراً. وقلت لعيني:

«هيا بنا نفتش عن مشهد ذي بال يليق بدمعتك الغالية، اللجوجة.» فاستصوبتِ العين مشورتي، وانطلقنا في بطاح الأرض ومناكبها نبحث عن قارورة نادرة لدمعة نادرة.

وما عتّمنا أن وقعنا على رجلٍ في بطن وادٍ يضرب الأرض بعصاه ويصيح بأعلى صوته: «انشقي أيتها الأرض. انفلقي أيتها الغول التي لا تشبع. فما أنا قانع منك بأقلّ من قلبك أشويه عشاء ليلتي مثلما شويت قلبي عشاء ليلتك.»

فقلت لعيني: إليك إنساناً أضاع لبّه. والإنسان بغير لبّ كالسنبلة بغير حَبّ. فمن أجدر منه بدمعتك الغالية؟ لكنّ عيني ما رفّ لها جفن ولا ابتلت من جفنها هُدبة. بل أوعزت إليّ بالانصراف قائلة: «دعه ينام على الطوى. فهو لا محالة واجد عشاءه في جوعه. أما الأرض فليس بواجد لها قلباً ولا لبّاً.»

وبعد ساعات من الجهد والتجلّد بلغنا ذروة عالية من جبل عال. وإذا بشيخ بيّض العمر لبدته واقف على صخرة منفردة عالية، وقد لبس جناحين من القصب يصفّق بهما فيهوي من على الصخرة إلى أسفل. ثمّ لا يلبث أن يعيد الكرّة من جديد من غير أن يكلّ أو يملّ. فهمست إلى عيني إنّه متنسّك أنفق العمر في الصوم والصلاة، وأنّه يحاول أن يدرك ربّه بجناحين من قصب فما يستطيع، وأن له من ذاك حرقةً ما تكوّى بمثلها قلب إنسان، وهي ستصحبه إلى اللحد. فهو قارورة نادرة للدمعة النادرة.

إلاّ أن عيني ما أبهت لما همستُ وما نصحت. بل أصرت

على المضي في التفتيش وتمتمت ما معناه: «ليصبر الهاربون من الأرض إلى السماء ريثما تنزل السماء إلى الأرض. ذاك أولى بهم.»

وبعد أيّام سلكنا في خلالها أوعر المسالك، وشهدنا أغرب المشاهد، بلغنا مدينة عظيمة نائمة على شاطئ البحر، وكان الهزيع الرابع من الليل. والمدينة غارقة في ظلمة دامسة ما خلا نافذة في الطبقة الأخيرة من بناية عديدة الطبقات. فقد كان يتسلّل منها ضوء شمعة ضئيل. وعلى ضوء تلك الشمعة كان شاعر يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وهو ينظم المقطع الأخير من ملحمة طويلة دعاها «ملحمة الأكوان» فلا تستوي في رأسه المعاني، ولا تنساق إلى قلمه القوافي، فيكاد يمزّق ثيابه، وينتف شعره، ويخرج من جلده. يكتب ثمّ يمحو ما كتب. ويسوّد الأوراق البيض فلا يلبث أن يمزّقها ويذريها من النافذة. فقلت لعيني:

«إن هذا الشاعر لحريّ بدمعتك من غير شكّ. فهو يحاول أن يحشر الأكوان في قافية. والأكوان لاهية عنه بأشغالها، فلا تنقاد إليه. وإن في رأسه لسعيراً ولا سعير جهنّم. فإمّا أقبل الصباح ألفاه كومة من رماد. فبرّدي من ناره بدمعتك السخيّة.»

فما كان من عيني إلاّ أن أطبقت جفنيها كأنّها خشيت على دمعتها من الانزلاق. ثمّ قالت بصوت لا شفقة فيه ولا رحمة: «ذره يحترق فهو واجد ملحمة الأكوان في رماده.»

فخرجنا من المدينة النائمة على شاطئ البحر. وعند الصباح ولجنا خميلة فيحاء حيث العصافير في نشوة من الألحان. إلاّ عصفورة كانت ترفرف فوق شجرة من الرمان، ضاربة الهواء بجناحيها الكليلين، وكأنّها تنتحب وتستغيث، فتدنو من الشجرة ولا تجرؤ أن تستقرّ عليها. وما طال أن لمحنا أفعى ملتفّة على جذع من جذوع الرمّانة فيه عشّ، وفي العشّ فراخ زُغب الحواصل، وقد راحت الأفعى تلتهمها الواحد تلو أخيه حتى أتت على الأخير. والأم ترقص رقصة الذعر والألم، ويكاد قلبها الصغير يطير من صدرها شظايا.

شهدت ما كان من العصفورة والأفعى فما خالجني أقلّ ريب في أن عيني سترتاح وتريحني من دمعتها. إلاّ أنّها انصرفت من هناك وصرفتني قائلة: «من يأكل الديدان فلا يعجبن إذا ما أكلته الأفاعي.»

أخيراً ضقت ذرعاً بعيني ودمعتها. فما بقيت أعرف ماذا أفعل وأنّى أتّجه. لكن هاتفاً هتف بي وكان عندي كصوت

الوحي. فعملت بما أوحاه إليّ وانطلقت بعيني إلى ميادين القتال، وقد سُرّي عني إلى حدّ بعيد.

هنالك قد أولم الموت لأعوانه وليمة ما عرفت الأرض لها من مثيل. فالدماء تسيل أنهاراً، والدموع تنهلّ انهلال الطلّ من المزن، والأجساد تتسابق إلى معانقة التراب، وتتناثر أعضاؤها تناثر الأوراق في تشرين. هنالك في كلّ حلق من الغصص أشواك، وفي كلّ فؤاد من الحزن نصال، وفي كلّ جفن من الدمع قروح ثخان، وعلى كل مسكن من الحداد ليالٍ مدلهمة. هنالك بشرية تملّعها الأقدار وتفري بلحومها الثعالب والضباع والغربان. هنالك أرحام ما تلقّحت بغير الموت، وثُديّ ما ترضع غير آمال جهيضة. هنالك تُعصَر المآقي عصراً فما تستطيع عين أن تمسك ملحها وماءها.

هكذا فكّرت، وهكذا أمّلت. لكن عيني خيّبت أملي. فما جادت بدمعتها لا على بهيمة ولا على إنسان في أي ميدان من ميادين القتال. بل إنّها، على العكس، تجاوزت أقصى حدود الشحّ واللياقة. إذ كادت تبسم لكلّ ما شهدته من أهوال الحرب. ولقد سمعتها غير مرّة تقول:

«يا زارع البغض فليهنئك هذا الحصاد.»

عندئذ عيل صبري، ونفدت حيلتي، وخار عزمي. ولم يبقَ لي إلاّ أن أعود من حيث اتيت. فرجعت أدراجي إلى منزلي، وأويت إلى فراشي، والخيبة تحزّ نياط قلبي، والدمعة في عيني كأنّها الجمرة من كور حداد، فلا هي براضية أن تفارقها، ولا الجفن بفاتح لها الباب، فكأنّهما وجداها فرصة سانحة للاقتصاص مني لقاء ما كلفتهما في سالف السنين.

وكان ليل نيسان قد أقبل صافياً، دافئاً، لعوباً، طروباً. ففي البركة بالقرب من بيتي ضفدعتان تتسامران. وفي الحديقة جدجدان يتغازلان. وفي الأودية البعيدة مياه تتدافع وتتسابق إلى البحر، فيسوق النسيم إليّ تهاليلها خافتة، نقية، حنوناً ومشربة ذوباً من السحر الذي ما دان يوماً لساحر. ومن النافذة تطلّ عليّ نجوم تتغامز فيما بينها وتتهامس، وترمي إليّ بحبال من نورها كأنّها تقول لي: «خذ بحبالنا وتعال إلينا. تعال...»

وتتمسك عيني بحبال النجوم نظير ما يتمسّك الفارس بالأعنّة. فأحسّ الأرض من تحتي مطية مطواعاً ذلولاً. وأُحسني على صهوتها فارساً لا يُقرَع. ونمضي - أنا والأرض - ننهب الفضاء نهباً. والأفلاك عن جانبينا تسلّم علينا، وتدور راقصة على أعقابها، منشدة أناشيدها الأزلية - الأبدية، فما ترانا غريبَين عنها،

وما نراها غريبة عنّا. بل كأنّنا منذ الأزل منها وفيها. وكأنّها إلى الأبد منّا وفينا. وكأن لي - أنا الكائن الصغير الغريب عن نفسه - إي، كأن لي في كل واحد منها موطناً بل مواطن، وحبيباً بل أحبّة، ونَفْساً بل نفوساً. وكأنّ لها فيّ مواطن وأحبة ونفوساً بغير عدّ.

وتعاودني في لمحة ذكريات ما كان من أمر عيني معي فما أُميّز ما بين ماضٍ وآتٍ، ولا ما بين معتوه وعاقل، ولا ما بين ملحد ومؤمن، أو بين أفعى وعصفور، وشاعر وشعرور، أو بين ميت وحيّ. فكأنّ الكلّ ظلّ واحد لفكر واحد هو فكر الجالس على صهوة الأرض.

وتختلط عليّ الأصوات والأنباض والأنفاس فما أسمع غير نَفَس واحد هادئ متواصل ترسله الأرض في الفضاء حيث يندمج بأنفاس سائر الأفلاك، فيؤلّف الكلّ لحناً مخمليّاً ما فيه نبرة آبدة أو خفتة نابية. فأوقن أن الأذن التي سمعتُ بها منذ حين فحيح شهوات الناس وصريف همومهم وزفير أوجاعهم ما كانت أذني. وأنّ العين التي أبصرتُ بها مساخر الموت ومآسي الحياة كانت غير عيني.

ويخيّل إليّ أن الفضاء بيضة هائلة غلافها الزمان. وأن في

قلبها بيضاً ضمنها بيض، ضمنها بيض. وأن كلاً منها ملقّح بلقاح الروح الكلي. وأنّ ما ينتاب كل مخلوق ليس الا الطعام المدّخر لنموّه في البويضة التي تحتويه. فما من تافه في الكون، وما من زائد أو ناقص، وما من نقطة أو حرف بغير قيمة في مصحف الوجود. أما إنتاج الكلّ فالإنسان. فهو لا ينقف من بيضة حتى يجد نفسه في أكبر منها.

وأرى الناس في جميع ما يعملون إنّما يعملون كلّ على نقف البيضة التي يتغلف بها. إلى أن ينقف الأخيرة فينعتق من ربقة المكان والزمان ويصبح روحاً مالئاً كلّ شيء، عالماً بكلّ شيء، قادراً على كلّ شيء نظير الروح الذي هو لقاح منه.

وتتحرك شفتاي عن غير قصد مني فأسمعني أقول:

«سبحان من زرع. وسبحان ما زرع!»

وإذا بجفني يرتعش، وبأهدابي تبتلّ، وبدمعة تغطس إلى أعمق أعماق قلبي فتستقر هنالك جذوة وهّاجة، مؤنسة، مباركة.

واحة السلام

تلاقى فرسان أربعة في وسط صحراء مترامية الأطراف، لا أوّل لها فيُعرَف، ولا آخر فيوصف. وكان الواحد قادماً من الشرق، والآخر من الغرب، والثالث من الجنوب، والرابع من الشمال. وما إن تبادلوا التحيّة حتى ترجّلوا ليستريحوا ويريحوا جيادهم المنهوكة في السير. وما ان استقرّ بهم المقام حتى راحوا يستفسر أحدُهم الآخر عن بلاده ووجهة سفره وعن الحافز الذي أهاب به على اقتحام تلك الصحراء وتجشم مخاطرها التي تفوق حدّ التصوّر.

ولشدّ ما دهشوا جميعاً حين تبيّن لهم أن حكايتهم تكاد تكون واحدة. وهي تتلخّص في أن كلاًّ منهم قد دوّخ ربع الأرض الذي هو قادم منه. وأنّه من بعد أن أفنى من أعدائه ما أفنى، ومن بعد أن أخضع لشوكته آخر سلطان من سلاطينهم، تاقت نفسه إلى نعمة السلام فما كان ليجدها حيث كان. وما انفكّ يطلبها فلا يظفر بها حتى كادت انتصاراته تنقلب

انكسارات شائنة في عينيه، وحتى ضاقت الأرض به وضاق صدره بالأرض. فما كان يهنأ له نوم ولا مأكل ولا مشرب، إلى أن استشار في أمره أحكم الحكماء في مملكته. فقال له إن في صحراء كيت وكيت واحةً تدعى «واحة السلام» وأنّ من دخلها مرّة وجرع من مائها ولو جرعة عرف السلام كلّ أيّام حياته. ولكن تلك الواحة مطوّقة بسورٍ منيع فيه باب واحد ضيّق لا يقوى على اقتحامه إلاّ الغالبون، ولا تجدي في معالجته شفاعة شفيع أو وساطة وسيط. فهو ينفتح من تلقاء نفسه إذا ما لمسته يد الغالب لمساً. ولا ينفتح لجيش لجب من غير الغالبين.

لبث الفرسان هنيهة يتبادلون أخبار الحرب والسفر، ويتساءلون عن الواحة أين تكون ومتى يدركونها ثمّ يعجبون لظاهرة غريبة رافقتهم منذ أن دخلوا ذلك البلقع الرهيب. ذاك أنّ كلاًّ منهم، أنّى تلفّت وكيفما اتجه، كان يبصر على مسافة منه جيوشه وجيوش أعدائه مشتبكة في قتال مميت على حدّ ما كان يراها في ساحة الوغى. ولكنه ما كان يسمع أصواتها إلاّ في الليل.

وكان أحد الفرسان الأربعة أنشط خيالاً من الثلاثة الآخرين فعلل الظاهرة الغريبة بقوله إنّه إن يكن للعين سراب فللأذن سراب

كذلك. وعليه فالذي كانوا يبصرونه في النهار ويسمعونه في الليل ما كان غير سراب في سراب.

واطمأنّ الفرسان إلى تعليل رفيقهم وهمّوا باستئناف السير. وإذا برجل يدنو منهم بخطوات واسعة، وفي يده عصاً لا غير وعليه قميص من الشعر وفي رجليه خُفّ من الخشب. وقد رفع صوته بالغناء. وما إن أصبح على خطوة منهم حتى بادرهم بالسلام. فأجابه ذاك الذي علّل سراب العين وسراب الأذن وقال:

«ومن أين لك السلام حتى تطرحه على الغير، ألعلّك دخلت واحة السلام؟»

قال: «لا، بل أنا قاصد إليها.»

فأنّبه الفارس بلطف: «إذاً فليعد سلامك إليك. فكيف يعطي السلام بلسانه مَنْ قلبه لا يعرف السلام؟»

فأجابه الرجل: «حقّاً تقول يا أخاه: فالسلام لأبناء السلام، والسلام لغة تفهمها القلوب لا غير.»

إلا أن الفارس ما راقه من الغريب أن يدعوه أخاه. فامتعض منه وأنّبه ثانية ولكن بغير لطف:

«كيف تدعوني أخاك وأنت صعلوك وأنا ربّ ربع الأرض؟ ها نحن الأربعة قد قهرنا الأرض بكاملها - فأي الأعداء قهرتَ

حتى تستحقّ أن تدخل واحة السلام؟ أما تدري أن واحة السلام لا يدخلها إلاّ الغالبون؟»

«أجل، أدري، ولذلك جئت أطلبها. فأنا قد قهرت كلّ أعدائي وما جنيت على إنسان قطّ.»

«ومن هم أعداؤك، ونحن - أرباب الأرض كلّها - ما لقيناك يوماً في ساحة قتال، ولا سمعنا باسمك، ولا عرفنا وجهك قبل اليوم؟ ألعلّك من غير هذه الأرض؟»

«بل أنا من أبنائها نظير ما أنتم من أبنائها. ولكنني أملك منها فوق ما تملكون، وغير ما تملكون. أمّا الأعداء الذين قهرتهم فستعرفون بطشهم عند باب واحة السلام؛ هيا بنا إن كنتم إلى الواحة تقصدون.»

«ما أغرب من مظهرك إلاّ كلامك. ألعلّك تعرف الطريق؟»

«أجل، أعرفه. فاتبعوني.»

وامتطى الفرسان جيادهم وساروا في أثر الرجل وهم في أمره ما بين الريبة واليقين. وكان السراب الذي تحدّثوا عنه فيما بينهم يواكبهم من بعيد. إن وقفوا وقف، وإن جدّوا في السير جدّ في السير.

وما هي إلاّ ساعة أو أقلّ حتى نبتت لهم واحة باسقة

الدوح، ناعمة الظلّ، نديّة الجوّ، نادرة الطير، شجية الصوت، وادعة القلب، قريرة العين. وما إن أدركوها حتى أبصروا من حولها سوراً هائلاً من الجماجم البشريّة. وقد أطلّت من محاجرها الأفاعي تعجّ وتتلوى وتتناهش وتنساب صعوداً ونزولاً. ومع الأفاعي عقارب سود شائلة بأذنابها، تدور ذات اليمين وذات اليسار فتدخل في جمجمة لتخرج من أخرى، وكأنّها تفتّش عن ضحيّة تصبّ عليها غضبها. ومع العقارب ربوات من الديدان المختلفة الأشكال والألوان، يزحف بعضها فوق بعض، فيسمع لزحفها أزيز منكر يبعث في الأجساد قشعريرة باردة.

رأى الفرسان ذلك السور فاكفهرّت منهم الوجوه، وانكمشت القلوب، وانعقدت الألسن. وممّا زاد في ذعرهم وارتباكهم أن الجيوش المتلاحمة التي كانت تواكبهم من بعيد وكانوا يحسبونها سراباً بانت لهم الآن جيوشاً من لحم ودم. وإذا بها جيوشهم وجيوش أعدائهم وقد ضربت نطاقاً حول السور وراحت تقتتل اقتتالاً لا هوادة فيه.

تلفّت الفرسان بعضهم إلى بعض تلفّت الأبله المذعور. ولشدّ ما أدهشهم أن يروا رفيقهم الخامس جالساً على الأرض وليس على وجهه للخوف والارتباك أقلّ دليل. فكأنّه ما كان

يبصر ما يبصرون، ولا كان يسمع ما يسمعون. بل كأنّه كان يسمع ويبصر ما يسرّ السمع والبصر، ويثلج الصدر، ويؤنس الروح. فدنوا منه وتوسلوا إليه أن يدلهم على الأقلّ على الباب كي يدخلوا الواحة في الحال ويريحوا أجفانهم وآذانهم مما في سورها من قبيح الأشكال والأصوات. فما أجابهم الرجل بكلمة بل أومأ إليهم أن يدوروا حول السور ثلاث مرّات.

دار الفرسان ثلاثاً حول السور فما ظفروا بباب. وعندما رجعوا إلى حيث كانوا وجدوا رفيقهم الخامس واقفاً أمام باب واطئ ضيق ما أبصروه من قبل. ورأوا فوق الباب لوحة كبيرة وقد خُطّت عليها هذه الكلمات:

«هذه واحة السلام. لا يدخلها إلاّ الغالبون.»

وفي الحال اندفع أحد الفرسان نحو الباب ولمسه بيده فلم ينفتح. ثمّ دفعه بكلتا يديه فلم ينفتح. ثمّ ركله برجليه ودفعه بيديه فلم ينفتح. وعندها استشاط غيظاً ورمى بكلّ جثته على الباب فظلّ مغلقاً.

وجاء الفارس الثاني ففعل ما فعله الأوّل وأكثر. وتلاه الثالث والرابع. ثمّ تعاون الأربعة بكلّ قواهم على الباب فما انهزّ ولا انفرج قيد شعرة. كلّ ذلك والمسافر الخامس يرقب حركاتهم

ولا يفوه بكلمة. وأخيراً عيل صبرهم ونفدت حيلتهم. فوقفوا يتشاورون في مخرج من مأزقهم. وبعد أخذٍ وردّ فتق لأحدهم أن الغالب المقصود بالكلمات فوق الباب إنما هو غالب الأرض كلّها، لا غالب ربعها، أو نصفها، لذلك فهو يرتإي على رفاقه أن يتصارعوا. فمن صرع الثلاثة كان الغالب المقصود وانفتح له الباب من غير شك، فدخل ثمّ أدخل الباقين.

وهكذا كان. فما انفكّ الفرسان الأربعة في كرّ وفر إلى أن عضّ ثلاثة منهم التراب، وبقي الرابع على صهوة جواده. فتنفّس الصعداء وقال: «أنا سلطان الأرض كلها.» ثمّ ترجّل ومشى بغطرسة نحو الباب. فدفعه ورفسه وضربه بسيفه. لكنه لم ينفتح. وعندما نفدت قوّته وحيلته التفت إلى المسافر الخامس وسأله هازئاً:

«ألعلّك أيها الصعلوك أدرى مني بأطوار هذا الباب. أما تعرف وسيلة لفتحه؟»

فأجابه الصعلوك بهدوء ورزانة: «بلى» ومشى إلى الباب فما ان لمسه بيده لمساً حتى انفتح وبانت الواحة جنّة ولا جنان الفردوس. وما ان دخل الصعلوك واحة السلام حتى انغلق الباب وراءه وبقي «سلطان الأرض» خارجاً. فصاح بالصعلوك وفي صيحته مرارة الانخذال:

ناشدتك اللّه يا هذا: أأغلِب كلّ مَن في الأرض ولا أدخل واحة السلام. وتدخلها وما غلبتَ أحداً قطّ؟»

فأجابه ذاك من الداخل:

«غلبتَ كلّ مَن في الأرض إلاّ جهلك فغلبك كل من في الأرض. قهرت أعداءك فقهرتك جماجم أعدائك. وحالفت في الحرب أفاعي شهواتك وعقاربها وديدانها فتحالفَتْ عليك في السلْم. ودانت لك الأرض فعصتك نفسك. فكانت الغالبة وكنتَ المغلوب. وهذه الواحة، كما قرأت فوق بابها، لا يدخلها إلاّ الغالبون».

رغيف وإبريق ماء

جاءني منذ أيّام شاب قدّرتُ له من العمر نحو الخمس والثلاثين، عربي الاسم واللسان، فرنجيّ الزي والهندام، وسيم المحيّا، ذابل الجفن، تائه البصر، خفيف الظلّ، عصبي الحركة، لطيف الصوت. وما إن حياني وجلس حتى بادرني بقوله:

«سمعت أنّك مؤمن، فجئت لآخذ عنك الإيمان.»

قلت: ولكن المؤمنين في الأرض أكثر من أن يحصرهم عدّ. فلماذا اخترتني دون كل المؤمنين؟

قال: هكذا أُلهمتُ. أليس إلهك غير آلهة الناس، وإيمانك غير إيمانهم؟

قلت: أما أني مؤمن فصحيح، وأما أن إلهي غير آلهة الناس، وإيماني غير إيمانهم، فأمر ليس في مستطاعي نفيه ولا إثباته. إذ أنني ما بلوت آلهة الناس كلّهم ولا إيمانهم.

فأجابني بشيء من الحِدة: أما أنا فقد بلوتهم جميعهم. فما وجدت بينهم إلهاً جديراً بإيماني. لذلك جئت أطلب إلهك وإيمانك.

قلت وقد أدهشتني لهجة الشاب، وخامرتني ريبة خفيفة في صحة عقله: ما دمت قد بلوت آلهة الناس كلهم فأنت لا شكّ واسع الاطلاع وقد حصّلت من الدرس الشيء الكثير.

فأجابني بلهجة فيها التأفّف وفيها الاشمئزاز: درست كثيراً، ونقّبت كثيراً، وحفظت كثيراً. ولديّ لقب دكتور في الفلسفة، ودكتور في اللاهوت، ودكتور في الطب من جامعات كيت وكيت. ولكنني من كل ما درست ونقبت وحفظت ما حظيت بإله أومن به. ومتى كانت كثرة الدرس والتنقيب والحفظ سبيلاً إلى اللّه؟ ألا ليتني ما درست ولا نقّبت ولا حفظت.

قلت: يا للعجب! أأنفقت من عمرك ما أنفقت في الدرس وما هدتك المدرسة إلى المحور الذي تدور عليه - أو الذي يجب أن تدور عليه - حياتك؟

قال: هدتني إلى محاور كثيرة إلاّ ذلك المحور. لذلك جئتك طالباً أن تدلّني عليه. فأنا اليوم قفل بغير مفتاح. وبيت بغير باب. ومسافر بغير هدف.

وسكت محدثي وأطرق طويلاً ثمّ استطرد فقال:

لي أخ أبله يملك في ما يملك صندوقاً قديماً من الخشب المطوّق بالحديد. وهو يحرص على ذلك الصندوق حرصه على

حياته وأكثر. وقد خبّأه في قبوٍ مظلم في البيت. ومراتٍ في كل يوم ينير سراجاً وينحدر إلى القبو حيث يصرف ساعات في تفقّد صندوقه ومحتوياته. أما مفتاح الصندوق فقد علّقه بخيط حول عنقه.

وذات يوم، وقد استفزّني تكتم أخي المفرط في أمر صندوقه، فاجأته في القبو. وإذا به قد أخرج كلّ ما في الصندوق ونثره حواليه وراح يتفحص كل قطعة تفحّص البخيل لدنانيره. ولكنه ما إن شعر بوجودي حتى انتفض كالملسوع وأطفأ السراج في الحال وراح يصرخ بأعلى صوته: «اخرج من هنا. انقذف عني يا شيطان. ابتعد يا ملعون.» إلاّ أنني بعد أخذ وردّ وجدال طويل، وتوسّلات حارة، وأقسام ووعود، تمكنت من إقناعه بأنّني لا أريد سوءاً به وبصندوقه، فاستردّ روعه ورضي بأن ينير السراج من جديد وأن يسمح لي أن أسرّح بصري في محتوياته.

وماذا تظنّني رأيت؟ رأيت فيما رأيت نعل فرس، وقفلاً صَدِئاً بدون مفتاح، وقبقاباً، وقطعة حبل متهرّئ، وحفنة من الأصداف الصغيرة، وخمس خرزات زرق، ومكوكاً، وطربوشاً قديماً بغير شرّابة، وقبضة من المسامير المختلفة الأشكال، ومطرقة خشب مكسورة، وجراباً فارغاً، وبوق فونوغراف محطم، ومظلّة

بلا غطاء، وعدداً من البكرات المتفاوتة الحجم ولا خيطان عليها، وقلب نارجيلة معه نربيج ممزق، وغيرها وغيرها من الأشياء التي على شاكلتها.

رأيت كلّ ذلك فما تمالكت من الابتسام، وسألت أخي عن قصده من جمعها وحفظها في ذلك الصندوق والتكتم في أمرها إلى ذلك الحدّ.

فأجابني بلهجة الفيلسوف:

«ما دام الإنسان حيّاً على وجه هذه الأرض دام في حاجة إلى كلّ شيء على الأرض. ومن يدري، فقد تمرّ بي ظروف أحتاج فيها إلى هذه الأشياء كلّها.»

فقلت له: ولكنك قد تجاوزت الخمسين من عمرك وحتى اليوم ما احتجت إلى شيئ منها. أتعرف ماذا ينقصك بعد يا أخي؟ قال: ماذا؟ قلت: «رغيف وإبريق ماء. فقد تجوع يوماً أو تعطش فتنقذ حياتك بالرغيف والماء. أما هذه الأشياء كلها فلا تسدّ جوعاً ولا تروي عطشاً.»

فأجابني ببساطة متناهية: «الحق معك يا أخي. فلا بدّ من رغيف وإبريق ماء.»

انتهى الشاب في حديثه إلى هذا الحدّ وتوقف عن الكلام

وأطرق من جديد. فما قطعت عليه سكوته إذ كنت أفكر في حكايته عن أخيه الأبله وصندوقه وعن قصده من سردها لي.

ولكنه ما طال أن عاد إلى الحديث فقال:

«تأمّلني مليّاً يا سيدي. تأمّل رأسي.»

قلت: إنّه لرأس جميل.

قال: وصندوق أخي لجميل كذلك.

قلت: أتعني أن رأسك شبيه بصندوق أخيك؟ فأين وجه الشبه؟

قال: بل إن رأسي وصندوق أخي لصنوان في كلّ شيء ما عدا الشكل والحجم. ففي رأسي، مثلما في صندوق أخي، نعال وقباقيب ومسامير وبَكَرٌ وقلوب نارجيلات وألف صنف وصنف من الأشياء التي لا روابط بينها ولا تجانس، والتي لا نفع منها إلاّ للنار. أما الرغيف المغذي والماء المحيي فلا وجود لهما في صندوقي على الإطلاق. لذلك جئتك أطلب غذاء وريّاً.

قلت: أتلومني أم تلوم الناس أم تلوم نفسك على ما أنت فيه؟

قال: لا ألومك ولا ألوم الناس بل ألوم نفسي. ولكن إلى حدّ. فقد خَدَعَتْني هذه المدنية الزانية وابنتها المتبرّجة.

قلت: ومن هي ابنتها؟

قال: أما تعرف ابنة الزانية؟ أما تعرف المتبرّجة الكبرى؟ هي المدرسة يا سيدي. أجل، هي المدرسة التي أبرزتها لنا أمها الزانية في أبهى صورة وأروع جلباب، فزينتها لنا ينبوعاً صافياً للحكمة الصافية، والمعرفة الحقة، والحرية الكاملة. تلك هي ابنة الزانية التي استغوتني فاستسلمت لها بكلّ قلبي وكلّ فكري وكل جسدي. فما كان منها إلاّ أن خدّرتني بسحرها ثم راحت تحشو رأسي بكلّ شاردة وواردة نظير ما يحشو أخي صندوقه. ففي رأسي من كل فن من فنون الزانية الكبرى خبر بل أخبار. فيه الأدب وفيه الفن وفيه الفلسفة وفيه اللاهوت وفيه الطبّ مع الكثير من التاريخ وأخبار النجوم وآثار الأرض، فيه كلّ ذلك مموّهاً بالبهرجة والادّعاء والكبرياء. ولكن ليس فيه حكمة ولا معرفة ولا حريّة. ليس فيه خبز وماء: ليس فيه ما يجعل لكلّ تلك الأمور معنًى جميلاً وقيمة أبديّة؛ ليس فيه هدف لا تجرفه تيارات النوائب، ولا تبتلعه لجج الثواني والساعات. ليس فيه إيمان وإله حريّ بالإيمان. لذلك جئتك طالباً حقي. فأعطني إلهك وإيمانك.

قلت وعلى شفتي بسمة فيها الشفقة وفيها الدهشة: إن طلبك يا صاحبي لغريب في بابه. أتظنّ أن إلهي ساعةٌ في جيبي وإيماني خاتم في خنصري لأقدمهما إليك؟

فانتفض انتفاضة عصبيّة وقال بحدّة فيها الغضب وفيها المرارة:

ما أنا بالأبله يا سيدي، وإن يكن لي أخ أبله. إنني أعرف ماذا أطلب وأعرف أن في مستطاعك أن تعطيني ما أطلب. بي جوع إلى خبزك وظمأ إلى مائك. وبعد فاعلم أنّك إن رددتني خائباً انهار كل ما بنيته حتى اليوم وكانت حياتك كلها خيبة هائلة، وكان إلهك شبحاً وإيمانك وهماً، وكنت أمكر الماكرين.

عندئذ وقعت في حيرة من أمره وأمري، فما عدت أعرف بماذا أجيبه وكيف أقنعه بأنّ اللّه يُحَسّ ولا يُعطى. وأن الإيمان إشعاع لطيف ينبثق من الحسّ باللّه فيتغلغل في زوايا النفس ويغمرها بفيض من السلام والطمأنينة. إلا أنّه من غير أن ينتظر جوابي عاد إلى الكلام فقال:

لست بجاهل أن هذا الصندوق (وأشار إلى رأسه) لا يتّسع الآن لرغيفك وإبريقك لكثرة ما فيه من غرائب الأمور. ولكن ادفَعْ في الأقلّ يدَ ابنَةِ الزانية عنه لينفك من سحرها، ويتاح لي تفريغه من كلّ ما فيه من حشو خبيث.

قلت وقد انفتح لي باب فرج: أمّا يد ابنة الزانية فسأرفعها

عن رأسك بإذن اللّه. وأمّا تفريغ رأسك ممّا فيه من حشو خبيث فأمر منوط بك دون سواك. فانطلق الآن بسلام. ومتى أفرغت «صندوقك» عد إليّ تجد رغيفي وإبريقي في انتظارك.

فنهض وقد سُرّي عنه، وودعني ببشاشة متناهية قائلاً: سأعود قريباً إن شاء اللّه.

فردّدت كلماته «إن شاء اللّه». وما أزال في انتظار عودته حتى اليوم.

الصّخُور

تباركتِ الصخور!

تبارك قَزمها وعملاقها، وداجنها وآبدها، وعابسها وضاحكها.

تبارك أسودها وأبيضها، وأغبرها وأصفرها، وأزرقها وأسمرها، وما كان منها بلون الشحم واللحم.

تبارك ما ارتفع منها وما اتّضع، وما استطال وما استدار، وما انتصب وما مال، وما اتّكأ وما اضطجع، وما قعد القرفصاء.

تبارك ما تراكم منها وتكتّل، وما انفرد واعتزل.

تباركت عروشاً للبدور والنسور، وملاجئ للسباع والأفاعي، ومخازن للفأر والنمل، ومساكن للعصافير، ومعابد للنساك، ومقائل للرياح والنسائم.

تباركت سلاسل فقرية وضلوعاً في جسوم الجبال، وأسِرّة للأنهار، وحراساً للبحار، وأعمدة في الهياكل، وحجارة في المنازل.

تبارك صمتها ما أفصحه، وسكونها ما أرهبه، وعماها ما أبصره.

تباركت، تباركت الصخور!

* * *

بيني وبين الصخور مودّة ما أستطيع تفسيرها، ولا تحديد الزمان الذي نشأت فيه. ولكنني أُحسّها عميقة وثيقة بعيدة الغور والقَرار. فلعلّها تعود إلى يوم كنت طينة في يد اللّه. وكأنّ النسمة التي جعلت من الطينة إنساناً ما كانت لتزيد تلك المودّة غير تأصل وجمال ونقاوة. حتى انها لتبلغ بي في بعض الأحايين درجة الهيام. فإذا ما انحجبتُ أيّاماً عن الصخور أو انحجبتْ عني، ثمّ أتيح لي أن أعثر على واحد منها أينما كان، ومهما يكن شكله أو حجمه أو لونه، أحسست جذلاً في دمي، وبهجة في عيني، ودوافع في مفاصلي تدفعني إليه. فإن تمكنتُ من لمسه لمستُه برفق ولهفة ومحبة. وإلاّ اكتفيت بما ترتشفه عيني من رحيق أنسه وهدوئه ورزانته ومودّته.

ولا شكّ عندي في أن القدرة التي لا تمسك عن كلّ ذي حاجة حاجته، إذا كان في قضائها خير للحاجة والمحتاج، كانت رفيقة بي وسخيّة عليّ إلى أبعد حدود الرفق والسخاء. فقد

باركتني بثروة لا نفاد لها من الصخور التي يندر أن يضارعها مضارع حتى في هذه الجبال المبكي عليها من أصدقائها والمهجورة من أبنائها لوفرة غناها بالصخور. ففي جبهة صنين وحده لي معين لا ينضب من الفتنة الخرساء المنهلّة بغير انقطاع من محاجر صخوره ونحورها والمترقرقة على مناكبه بكلّ ألوان الشموس والأقمار، والأمسية والأسحار، ووهج الهجيرة، وظلال السحاب، وأنداء الضباب، وأنفاس الفصول، وأنغام الدهور.

هنالك أسوار من الصخور فوقها أسوار، فوقها أسوار تتقاعس وتتسامى متمطية ذات اليمين وذات اليسار، مكتظّة ههنا، منفرجة هناك. ولكنها أبداً متماسكة، متراصة، متساندة، وفي تماسكها من المحبة آيات وأسفار، وفي تراصّها من الجبروت ملاحم وأمثال، وفي تساندها من الأخوّة عظات بليغات. وفي تلك الأسوار جبابرة من شواهق الصخور، بعضها ما لمسته كفّ بعد، ولا وطئته قدم، ولا مسّه ظلف ولا حافر. وبعضها يمتنع حتى على ذوات المخلب والمنسر والجناح، فلا يخادن إلاّ الريح والبحر والسماء.

وفي سفوح صنين أُسرٌ من الصخور وعشائر وجيوش مجيشة هي أُسَره وعشائره وجيوشه. فلا شكّ في أنّها من صلبه ومن روحه. وهو عطوف عليها عطف أحَنّ الآباء على أحبّ

البنين. منها ما يعيش جماعات لا تطيق الوحدة والانفصال. لذاك تراكمت بعضها فوق بعض، فتلامست منها الجباه، واشتبكت السواعد بالأعناق، وتلاصقت الصدور والأعجاز. فكأن واحدها يخشى على رفيقه أن يفلت منه أو أن يتزحزح من جواره قيد شعرة. وفي تشابكها هندسة تبهر البصر، وفي تكوينها أشكال تحيّر الفكر، وفي أشكالها رسوم وتماثيل ورموز تشلّ الخيال. وفي أحشائها التي لا تنفذ إليها الشمس فساطيط وسراديب وكهوف ومغاور تضيق وتتسع، وتستقيم وتتعرج، وتتشعّب وتمتدّ في ظلمات كثيفة سحيقة ما اخترقتها إلى اليوم حرارة أو شرارة. وأنتم إذ تنظرون إلى تلك الصخور تعجبون للتي منها في أسفل كيف لا تنسحق تحت ما تحمل من الأثقال، وكيف لا تشكو ولا تئن. وللتي في أعلى كيف تثبت للعناصر قروناً تلو قرون، وكيف لا تصاب بالدوار فتهوي إلى أسفل.

ومن صخور السفوح ما عبّد به صنّين الطرق التي يسلكها حبيبُه البحر عند عودته من زياراته العديدة له، فما إخالكم تجهلون ما بين صنين والبحر من محبة لا تضاهيها محبة قطّ. ففي الصيف ما ينفكّ البحر يغمر بأنفاسه وجه صنين: فآناً سحابٌ وآونة ضباب، وآناً ندى ما أظنّ جنّة عدن عرفت ألطف أو أخفّ

منه. أما في الخريف، وقد راح صنين يستعدّ لغفوة الشتاء، فيصعد إليه البحر مراراً ويغسله من أمّ رأسه حتى أخمصيه، كأنّه العروس تَعَدّ للزفاف.

ويأتي الشتاء فيطير البحر إلى صنين ليغفو وإياه غفوتهما الطويلة البيضاء. ويجيء الربيع فيستفيق العروسان ويعود أحدهما إلى شواطئه في الطرق التي رصفها له الآخر بفلذات من كبده وأقام على جوانبها حراساً من عمالقته ونماريده. يعود مهلّلاً، مكبّراً، ثملاً بما زود وتزود. ويبرز الآخر من مخدعه مجلوّ الجبين، مشرق الأسارير، متلألئ الأحداق، ممتلئ القلب والأحشاء. أما ثمار تلك الغفوة البيضاء والقران السرّي فينابيع من الحياة ترسلها صخور صنين شرقاً وغرباً وقبلة وشمالاً لتفيض على الناس والبهائم خيرات وبركات.

وثمة جماعات من الصخور بذرها صنين في سفوحه تتفرد بصفات لا يشاركها فيها مشارك. ومنها الجماعة التي اهتديت إليها منذ أحد عشر صيفاً، فألِفْتها أكثر من منزلي وزرعت ولا أزال أزرع في جنباتها أيّاماً من العمر لعلّها أخصب وأطيب أيام حياتي. وقد دعاها أحد أصدقائي «مدينة الأشباح» وهو من الذين يعرفون قيمة العبادة في معابد الصخور.

أما «مدينة الأشباح» هذه فتشغل حيّزاً ضيّقاً من الأرض لا يتجاوز المائتي متر طولاً وعرضاً. وعلى وجه هذه الفسحة من الأرض قد انتثرت صخور رصاصية اللون ليس بينها الغضوب والمتجبّر، ولا المتشامخ والمستعصي. فأقربها من السماء لا يعدو ارتفاعه الأربع أو الخمس من القامات، وهامته لا تمتنع على الكفّ والقدم، اللهمّ كفّ تستنعم لمس الصخور وقدم تستأنس بجسّ أضلاعها، وألصقها بالأرض ليس بالدميم ولا بالزنيم، ولا بالفضولي والطفيلي. فما من صخر هناك، ضخماً كان أم ضئيلاً، إلاّ كان ذا قدر وقيمة، وكان حيث هو حرفاً لا يمكن استبداله بسواه، أو نقطة لا غنى عنها كالنقطة التي تميّز النون عن الباء.

وهذه الصخور قد تجمهرت هنا في هيئة أنقاض تكدّس بعضها فوق بعض، ومن تحتها الدهاليز والسراديب والكهوف. وانفرطت هناك فاستقلّ كلّ صخر بذاته. واصطفت هنالك في شكل دائرة واسعة. فكأنّها الأسس التي كانت تقوم عليها قبة هائلة، أو كأنّها جدران ملعب للأسود كالملاعب التي كانت خير سلوى للأقدمين. وبين الصخور ومن حولها قد نبتت أشجار من البلوط والبرقوق والزعرور والسنديان، تاركة فرجات من التراب الأصلع كأنّها عرصات دورٍ وباحات قصور تتصل بعضها ببعض

بِمَمرّات تتكسر وتتلوّى إذ تدور حول هذا الصخر أو تنثني عن ذاك.

أما أشكال تلك الصخور فلا نهاية لبدائعها وغرائبها. فمنها ما يبدو كأنّه المركب في البحر، ومنها ما يتراءى لك أبراجاً ومنارات، ومنها ما يذكرك بأبي الهول أو بعابد منقطع إلى عبادة ربّه، ومنها ما يعيد إلى ذهنك رسم بعض الحيوانات المنقرضة كما يتخيّلها أو يصورها المنقبون عن ماضي الأرض وآثارها، ومنها ما تجوّف واستدار واتخذ السماء سقفاً، وكثرت أفاريزه ونوافذه ورفوفه كالصخر الذي ألجأ إليه في أيّام الصيف كلّما تاقت نفسي إلى التعري من بهرجات الناس ومشاكلهم، وعناكب المعيشة وأوصابها، وإلى الاستحمام في بحور السكينة التي لا شواطئ لها. ففي جوف تلك الصخرة التي تحرس مدخلها بطمةٌ وبلوطتان وأشواك كثيرة هدوء بغير قرار، تغرق في لُجّهِ الحروب والضغائن، والمطامع والمخاوف، والمسرات والحسرات. وتغور في أعماقه الأجيال والعصور، فلا يطفو على وجهه إلاّ خيال القدرة التي لا تحول ولا تزول. وإذا ما خالط ذلك الهدوء صوتٌ من الأصوات فزقزقة عصفور أو طنين نحلة أو رفة جناح فراشة، أو وشوشة النسائم بين أوراق البطمة والبلوطتين.

ما دخلت مرّةً «مدينة الأشباح» ومشيت في منعرجاتها، وصافحت صخورها، وتفيأت ظلالها إلاّ أحسست جيوشاً من الأجيال والأشباح تواكبني وتجالسني وتتألّب من حواليّ. فحيناً تعاتبني، وحيناً تداعبني، وآخر تؤنّبني. ولا تزال بي حتى أنفض من فكري ومن قلبي وعن أناملي وأجفاني غبار الثواني والدقائق الممعنة في فيافي العمر نهباً. وإذا بالزمان وشاحٌ ممزّق عند قدمي. وإذا بالصخور تذوب وتتبخّر وينعقد بخارها فوق رأسي قباباً من الجمال الذي يُحَسّ ولا يُبصَر.

وإذا بي صخرة صماء بكماء تتكسر عليها أمواج الموت والحياة وتنزلق عنها العواصف والصواعق انزلاق الطلّ عن الزجاج. ولكنها صخرة تملأ الأرض والسماء. ولكنها صخرة تعي وتحفظ وتدوّن.

* * *

تباركت، تباركت، تباركتِ الصخورا

مـوزّع الـبريـد

موزّع البريد، - ومن منكم لا يعرف ذلك الرسول الأمين، الوديع، السكوت، البشوش، الجلود الذي يحمل إليكم في كلّ يوم شتى الرسائل والأخبار؟ يحملها، مثلما تسلمها، مكتومة مختومة، فلا يقرأ منها غير أسماء أصحابها ومحلات إقامتهم؛ يحملها في الصيف والشتاء، وفي الربيع والخريف، فلا تثنيه عن السعي شمس محرقة ولا ريح صرصر، ولا تقعده عن القيام بمهمته سيول أو ثلوج. وهو بريء من كلّ ما يحمله إليكم، خيراً كان أم شرّاً، براءة الأثير ممّا فيه تنفثون، والقرطاس مما عليه تسطّرون. فالرسالة التي ينقلها إليكم ما كتبت بوحيه ولا بعلمه ولا بإرادته. وهو يجهل ما فيها ويجهل قصد كاتبها منها، وعلاقته بكم، وما ستثيره بأفكاركم من قلق أو طمأنينة، أو تبعثه في قلوبكم من أسىً أو حبور.

أما خطر لكم يوماً ببال أن تتخيلوا حقيبة موزع البريد بكل ما تحتويه من غرائب الأسرار والأخبار؟ حقّاً إنها لحقيبة عجيبة

تهزأ حتى بالخيال وتتجاوز أقصى حدود التصوّر البشري. ففيها تتجمّع ومنها تتوزّع كلّ مجاري الحياة البشرية من أقدمها إلى أحدثها، ومن أتفهها إلى أجلّها، ومن أحلاها حتى أمرّها، ومن أشدّها ظلاماً حتى أسطعها سناء. فكأنّها المحيط تتجمّع فيه الينابيع والجداول والسواقي والأنهار لتعود وتتوزّع منه ينابيع وجداول وسواقي وأنهاراً.

في حقيبة الموزّع تتصل ولادة آدم بولادة آخر مولود استقبلته الأرض، وموت هابيل بموت آخر إنسان ودّعته الحياة. وفيها يندمج أوّل فجر بآخر فجر، وآخر مساء بأوّل مساء. وفيها تجيش كلّ شهوات القلب الإنساني منذ أن نبض قلب الإنسان بأوّل شهوة من شهواته، وتتألب وتتداخل وتتصارع كلّ أفكار الإنسانية وخيالاتها منذ أن أصبح الإنسان ذا فكر وذا خيال. وفيها تتزاوج وتتناسل، وتتقارب وتتباعد كل أوجاع الناس ولذاتهم، وكلّ مخاوفهم وأشواقهم منذ أن تذوّق الإنسان أوّل وجع وأوّل لذّة، ومنذ أن دبّ في مفاصله أوّل خوف من الموت والألم، ومشى في دمه أوّل شوق إلى حياة لا موت فيها ولا ألم.

ما من عمل يعمله الناس، وما من فكر يفكّرونه أو نيّة ينوونها؛ ما من طارئ في عالم الغيب يطرأ عليهم؛ ما من حلم

جميل تتكحّل به أجفانهم أو هاجس مزعج يستقرّ في خلايا مخاخهم، ما من فرح يمرّ بأنامله الناعمة على أوتار قلوبهم، أو ترح يقرض بأنيابه القاسية نياط قلوبهم؛ ما من حرب ولا من سلم؛ ما من ربح ولا خسارة؛ ما من شيء على الإطلاق يمتّ بصلة إلى الإنسان سواء في السماء أو على الأرض، إلاّ وجدتم له أثراً في حقيبة موزّع البريد. وهذه الآثار قد اختط كلّ واحد منها مجرى لذاته يستقلّ عن سائر المجاري. فهي التي تسوق موزع البريد لا هو الذي يسوقها، ومهمته تنحصر في الجري معها إلى هدفها. فهذه تجري إلى جعفر، وتلك إلى زكريا، وهاتيك إلى حنة أو خديجة. وما على الموزع إلا الجري بها إلى جعفر وزكريا وحنة وخديجة دون سواهم من الناس.

كأني بكم، وقد أطلت التلميح دون التصريح، تتساءلون عن قصدي من التحدث إليكم عن موزع البريد وحقيبته، أهو موزع البريد وحقيبته بعينهما، أم أن وراء الموزع موزعاً آخر، وخلف الحقيبة حقيبة أخرى؟ أصحيح أنكم ما حزرتم قصدي؟ أما رأيتم وجه الشبه ما أمكنه وما أحكمه بين موزع البريد وحقيبته وبين القدر وحقيبته؟

كثيراً ما سمعتكم وكثيراً ما أسمعكم تنعتون القدر بنعوت

شائنة هو براء منها، فهو في شرعكم القدر الأعمى، والقدر الطائش، والقدر القاسي، والقدر الغشوم، والقدر العاتي إلى ما هنالك من شتائم ومثالم.

إني لأربأ بالقدر - ذلك الرّسول الأمين، السكوت، الجلود - أن يكون جديراً منكم بغير الشكر والإعجاب؛ وإني لأربأ بكم تنسبون إلى القدر العمى، والطيش، والقسوة، والغشم، والعتوّ وهي عماكم وطيشكم وقسوتكم وغشمكم وعتوّكم.

فما القدر إلاّ موزّع البريد العالمي الذي لا يفتُر لحظة واحدة في خدمتكم وخدمة كلّ ما في الكون، واصلاً الليل بالنهار، والأمس باليوم والغد، غير عارف للنوم معنى، ولا للراحة ذوقاً، وغير مقيم لمراتب الناس، ولا لخيرهم وشرّهم وزناً. وأهمّ من كلّ ذلك وأعجب أنّه ما أخطأ يوماً في تأدية رسالة، كما قد يحصل أحياناً لموزع البريد. فما سلّم زكريا رسالة موجهة إلى جعفر، ولا ناول خديجة بطاقة معنونة باسم حنّة. أما حقيبة القدر فليس فيها غير رسائل منكم، ورسائل إليكم؛ رسالة منكم أو رسالة إليكم، ولا زاد حرفاً أو نقص حرفاً من حروفها، ولا زاد أو نقص حبّة من بذاركم أو من حصادكم.

عندما يأتيكم موزع البريد برسالة تكون جواباً على رسالة

سابقة منكم لا تعجبون لأمر، بل تعترفون أمام أنفسكم وأمام الناس بأن رسالتكم جاءتكم بذلك الجواب. وإذا ما جاءكم كتاب من إنسان تجهلونه فلا بدّ من أن يكون بعضٌ منكم - بعض من أفكاركم وأعمالكم ورغباتكم - قد اتصل بذاك الإنسان عن غير علم منكم فجاءكم منه بما جاء. وفي كلا الحالين يكون الجاذب منكم إليكم، ولا دخل للموزع في ذلك البتة. فعلامَ تسكنون للقدر يأتيكم بما ترغبون، ثمّ ترمونه بكلّ شنيعة إذ يأتيكم بما لا ترغبون، وهو في الحالتين إنما جاءكم صاغراً بما أمرتموه وبما سعيتم إليه من تلقاء أنفسكم وجذبتموه إليكم عن وعي وغير وعي منكم؟

عجباً تقرأون في كتاب الأرض أن كلّ ما فيها من نبات وحيوان وبشر يولّد من جنسه، ولا تقرأون في كتاب النفس أن كلّ ما فيها من شهوات وأفكار وهواجس وأحلام وخيالات يولّد من جنسه كذلك! أما عرفتم حتى اليوم أن نظام الكون واحد لا يتحوّل ولا يتبدّل! فكما في السماء كذلك على الأرض. كما في الظواهر كذلك في البواطن. كما في عالم الأجساد كذلك في عالم الأرواح.

ثمّ عجباً تنظرون إلى البحر فلا تدهشكم حركة منه لا تهدأ

طرفة عين، ولا يذهلكم أن تروه يوزع نفسه بغير انقطاع. أما مرّ بخيالكم قط أنّكم أنتم كذلك بحور حركتها لا تهدأ طرفة عين، وأنكم أبداً توزعون أنفسكم وأبداً تستردّونها؟

خزّان عجيب هو الإنسان تجمعت فيه كلّ الأزمنة وكلّ المسافات بكلّ ما انطوت عليه من قوى لا تُعَدّ ولا توصف، وأسرار ما استوعبتها مخيّلة غير مخيّلة اللّه. منها ما هجع ورسب. ومنها ما استيقظ وعام. وهذا الخزّان ما ينفكّ يفيض ثمّ يستعيد ما فاض منه. وقد تمرّ به عواصف وتنزل به صواعق تحرّك حتى ما رسب في أعماقه فترفعه إلى فوق، وتوقظ ما هجع منه فترسله أمواجاً متدافعة في الفضاء. فأنتم ما تفتأون تنبضون حياةً ما دام فيكم حياة؛ تنبضونها في كلّ لمحة من الزمان؛ وفي كلّ نقطة من المكان. تنبضونها في اليقظة وفي المنام؛ تنبضونها أعمالاً وأفكاراً وآمالاً وأحلاماً وشهوات وإحساسات لا حدّ لمداها ولا حصر لألوانها.

وهذه النبضات هي بمثابة رسائل تبعثون بها إلى كلّ ما في الكون، لأنّكم على اتصال دائم بكلّ ما في الكون. فلا تلبث ان تأتيكم جواباتها. وقد يكون الجواب لدغة عقرب، أو بشارة بمولود، أو نعي عزيز عليكم، أو مركزاً عالياً في الدولة، أو سلّة من

العنب، أو رزمة من الإبر، أو فيضاً من الإيمان، أو حبل مشنقة إلى آخر ما يمكن أن ينتاب كلّ حيّ في حياته. وهذه الجوابات تتناسب أبداً مع مضمون ما بعثتم وتبعثون به من رسائل. والذي يحملها إليكم هو عين الرسول الذي حمّلتموه رسائلكم - وأعني القدر الذي لو تعمقتم في البحث عنه لما وجدتموه غير الزمان. فالزمان يسجّل عليكم كلّ رفّة جفن، وكلّ نَفَس، وكلّ نيّة، وكل فكر وشهوة، وكل أمل وعمل. ثمّ يردّها إليكم مع النتيجة من بعد أن تدور دورتها، وتفعل فعلتها. ويردها في حينها، لا قبل ولا بعد. أما أنتم فلا تسجّلون ولا تذكرون ولا تعون.

ما أشبه الإنسان بهذه الآلة التي أكلمكم بواسطتها. إلاّ أنّه أدقّ منها بما لا يقاس. فهو أبداً يذيع وأبداً يلتقط. والذي يلتقطه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يذيعه. لذلك تنوّعت الأقدار والحظوظ وتعدّدت مظاهرها. وحيثما اشترك اثنان أو أكثر في إذاعة واحدة أو أكثر نزلت بهم أقدار متشابهة في ظاهرها، مختلفة في بواطنها. لكلّ فرد من الأسرة قدر مستقلّ. ولكن للأسرة أقداراً يشترك فيها كلّ أفرادها بالسواء. كذلك الحال مع القرية والمدينة والدولة والإنسانية بمجموعها. وكذلك هي الحال حتى مع الأفلاك، وأخيراً مع المسكونة بأسرها. فلكلّ منها قدر فردي. وللمجموع

قدر واحد شامل ناتج عمّا ينبض به أو يذيعه كمجموع شامل.

فكّروا في الحرب على هذا النمط تجدوها مجموعة جوابات يؤديها موزع البريد العالمي للأفراد والأمم، والأرض والمسكونة على رسائل قديمة أو حديثة أذاعوها على مرّ الأجيال والدهور. ثمّ باركوا معي موزع البريد - باركوا القدر - فهو ببركتكم أحقّ منه بلعنتكم، وبشكركم منه بلومكم. فما في حقيبته إلاّ العدل والحقّ كلّ الحقّ.

ومن ثمّ فمن كان منكم يطلب السعادة فليحذرن من أن يطلبها في المال أو البنين أو الجاه العريض أو الصيت البعيد، كلّ ذلك قبض الريح. فسرّ السعادة في أن يكون ما تذيعونه سعادة لكم وللغير كيما يكون ما تلتقطونه سعادة للغير ولكم.

قالوا استقلّ لبنان

وكانت ليالٍ غار نجمها، وتقنّع قمرها، وكثرت وشوشات أقدارها.

وكانت نهارات مثقلة بالسعايات والنكايات، وبالعجيج والضجيج، والحقد والغضب، والبغض والصخب.

ثمّ تلَفّت الناس بعضهم إلى بعض، وتطلّعوا إلى فوق، وإذا بقطعة من نسيج أحمر فأبيض فأحمر، وقد توسطها ما يشبه الأرزة، يصفّقها النسيم في الجوّ فتصفّق لها الجماهير على الأرض، وإذا سأل ساذج عن كلّ ذلك ما معناه،

قالوا: استقلّ لبنان.

فقلت مرحى وألف مرحى يا لبنان! لكأنّك من عبقر، بل لكأنّك عبقر. فأنت على صغرك وضعفك بين الأمم أتيت معجزة ما أتتها أكبر الأمم وأقواها منذ بدء التاريخ حتى اليوم. فلا مصر رعمسيس، ولا بابل نبوخذ نصّر، ولا أشور شلمنصر، ولا مقدونية ذي القرنين، ولا رومة قيصر، ولا السند ولا الهند ولا

العجم ولا العرب، ولا أي دولة من دول الزمان الأخير تمكنت من أن تقبض يوماً حتى على مفتاح ذلك الكنز الذي لا يثمن - كنز الاستقلال. وها هي تلك الممالك قد بادت وما ورّثت الأجيال من بعدها سوى نكباتها الناجمة عن عظيم فقرها إلى الاستقلال. والتي ما بادت منها لسوف تبيد ولن تورث الأجيال من بعدها سوى أشواقها المحرقة إلى عنقاء تدعى الاستقلال.

وأما أنت يا لبنان:

يا رقعة شطرنج فتّانة تلعب عليها الأقدار - أقدارك وأقدار الأرض كلّها - لعبتها المكتومة عنك وعن كلّ أبناء الأرض؛ أنت يا مضرب الرياح الهائمة على غير هدى من المغارب والمشارق، ومن القطب حتى القطب؛ أنت يا مسرح الآلهة سميحها وكؤودها، باسمها وعبوسها، غفورها وثؤورها؛ وأما أنت يا لبنان فبالقليل من العناء والألم، وبالكثير من الضوضاء والغوغاء أصبحتَ ما بين ليلة وضحاها ذا عَلَم وذا مكانة بين الأمم.

فقالوا استقلّ لبنان.

ألا ليت الحقيقة كانت ما قالوا وما يقولون. إذاً لتمنّيتني خيطاً في علَمِك يا لبنان، وأهزوجة في فمك، وبساطاً لقدميك، وقطرة ماء في إبريقك، ورغيفاً في معجنك، وطيفاً من الأطياف

التي ترود منامك، وفكراً من الأفكار التي تلازم يقظتك، وبوقاً يذيع استقلالك في مسامع العالمين. فأنا - وقد بلوت من الحياة ما بلوت - لا أطمع منها إلاّ بأمنية واحدة هي الاستقلال. ولا أمنّي النفس بالاستقلال إلاّ لأجعلها دليل الآخرين إليه.

قالوا استقلّ لبنان.

وباكورة استقلالك يا لبنان كانت غضبة لكرامة لغتك تنافسها أو تتقدم عليها لغة أخرى في بلادها. ولغتك شريفة المحتد وحريّة بإكرامك يا لبنان.

ولكن من أين لك هذا الخصب المروّع بالألقاب الغريبة عنك وعن لغتك يتهافت عليها بنوك ولا تهافت الذباب على فضلات المطابخ؟ فهل في معاجم لغتك لقب ثنائي أوّله باءٌ وآخره كاف؟ أما تستصغر نفسك ولغتك يا لبنان تشرّفهما بمثل تلك العجمة المعتلّة القلب والكبد والأمعاء وما هي غير نفاية مرذولة حتى في مواطنها؟ أكرامة واستقلال، وخساسة ومذلة؟ أصيف وشتاء في آن واحد وعلى سطح واحد؟

ومن ثمّ فعندك يا لبنان من هم ذوو فخامة، وذوو دولة ومعالٍ، وسعادة وغبطة، وسماحة وعطوفة، ومقام رفيع وما إليها من الألقاب الطنّانة. أما أنا - ذلك اللبناني المبهم الذي لا لقب له ولا حسب؛ أنا

الذي أدوس العنب في معاصرك وأجمع الزيت والنبيذ في خوابيك، وأذرّي القمح على بيادرك، وأقطع الحجارة في مقالعك والحطب في غاباتك؛ أنا الذي لولاي لكنتَ بلا عضل، ولا عصب، ولا دم، - أما أنا فمن أنا وذو ماذا أنا يا لبنان؟

لئن تقل لي إن ألقاباً طنّانة تخلعها على ذوي السلطان من بنيك ليست سوى تمويه على الباقين من بنيك تصون به كرامة حكمك وهيبة حكامك، - لئن تقل لي ذلك أجبك بأنّ استقلالاً يقوم على التمويه ليس سوى تمويه. وأنا أربأ بك تحطّ محكومك لترفع حاكمك، وتُعزّ حاكمك لتُذلّ محكومك. وأربأ بك تموّه عبودية في باطنك باستقلالٍ في ظاهرك، وتجعل من بنيك طبقات تتعالى فوق طبقات، وصفوفاً تجثو أمام صفوف، وصغاراً يبخّرون لكبار، ثمّ ترضى بأن تقول وأن يقال عنك:

لقد استقلّ لبنان.

وكيف تستقلّ من الغير يا لبنان إلا أن يستقل الغير منك؟ وها أنت ذا قد استعبدت حتى الآلهة. أما تراك إذا ما خاصمت فباسم آلهتك خصامك، أو سالمت فباسمهم مسالمتك؟ إن غضبت على أخيك أكرهتهم على الغضب عليه، أو شهرت حرباً على أخيك سيّرتهم في الطليعة؟ لقد روّضتهم وذلّلتهم إلى حدّ أن

أصبحوا أطوع لك من بنانك. فجعلتهم همزات قطع بينك وبين أخيك، وعهدي بهم همزات وصل بينك وبينه وبين كلّ مخلوق ومخلوق. ألا أعطيتهم استقلالهم ليعطوك استقلالك؟

بل كيف تستقلّ من الغير يا لبنان إلا أن تستقلّ أولاً من لبنان - لبنان الذي يحسب الورم في جاره لحماً فيتمنى لو يتورم مثله؛ والذي يستعير أسمال جاره ويظنه واجداً فيها الدفء والعافية؛ ويحسد جاره على نُظم تقوده أبداً إلى بحور من الدمع والدم؛ وعلى علوم تتلبّد غيوماً دكناء في محاجره؛ وعلى فحشاء انتحلت لذاتها اسم الحرية الطاهرة، وخلاعة تردّت برداء الأناقة؛ ويسمع حشرجة جاره فيحسبها أنشودة الخلاص. لبنان الذي يسجد للفلس صباح مساء، في سره وفي علانيته، فيرى وجهه أجمل من وجه ربّه الكريم، ويرى القوّة كلّ القوّة من كفّه وفي كفّه، والنور كلّ النور من عينه وفي عينه، والحشر والنشر من قلبه وفي قلبه، فلا يأنف من أن يسفح على قدميه عزّة نفسه، وشرف إنسانيّته، وسلامة وجدانه. لبنان الذي طرح بروحه في سوق الدلالة حيث مخاوف الجوع والفقر والألم وعلى رأسها الدلاّل الأعظم، واسمه الموت، تتصافق على أرواح الجبناء والضعفاء، الفقراء بالإيمان بأنفسهم لأنّهم فقراء بالإيمان باللّه.

قالوا استقلّ لبنان.

وهل يستقلّ مَن في عنقه دَين قبل أن يوفي الدين؟ وفي ذمة لبنان رسالة لا تزال ديناً عليه حتى يؤديها سليمة، صافية، كاملة.

أما ترون كيف أن لبنان من الأرض بمقام القلب من البدن؟ أوَما ترون ذلك القلب ما أتمه صنعاً، وأجمله شكلاً، وأدقّه تركيباً؟ حقّاً إنّه لآية من أبدع ما أبدعته القدرة التي لا توصف ولا تسمّى. وذلك لا عبثاً، ولا مصادفة، بل عن حكمة وروية وتصميم. ففي هذا القلب العجيب الذي هو لبنان قد شاءت الحكمة الأزليّة أن تجمع أنباض الإنسانيّة غابرها وحاضرها وآتيها كيما تحسّ وتدرك أنّها جسد واحد وقلب واحد ونبض واحد.

وأي أنباض الإنسانيّة أنبل وأسمى وأجلّ من تلك التي حمّلَتْها الإنسانيّة أعذب أمانيها، وأقدس أشواقها، وأقصى اندفاعها إلى حياة حقّها حق، ونورها نور، وسلامها سلام؟ هي النبضات التي أرسلتها متقطّعة، متفرقة من طور سينا ومن جبل الزيتون ومن عرفات وحملايا وأرارات. وها هي قد تجمعت كلّها في لبنان حيث ينبض بها «حرمون» و «صنين» و «فم الميزاب» وهذا البحر الذي ما ينفكّ يرفعها قرابين ومحرقات إلى السماء.

ألست تبصر ما أبصر، وتسمع ما أسمع يا لبنان؟

إن تلك النبضات العلوية هي أمانة في عنقك اليوم. فهي ما تجمعت فيك إلاّ لتصونها من التلاشي، ومن فحيح الشهوات السود، وإلا لتجعل منها نبضة واحدة ترسلها تياراً من الإيمان المكهرب في شرايين البشرية التي تكاد تتحجّر بالخيلاء والفحشاء والادعاء والتنافس بقوّة العظم واللحم والعضل، والتهالك على ما تتقيأه الأرض عاماً بعد عام من مأكل ومشرب وحطام.

تلك هي رسالتك يا لبنان. فأنتَ ما وسَمَتك الطبيعة بميسم الجمال لتجعل منك بوقاً للشناعة. ولا وضعتك من الأرض موضع القلب لتعود فتضعك منها موضع العقب. ولا كونتك حصيناً لتجعلك معملاً للسلاح، ومعقلاً للحرب، وخمّارة للخلاعة، ومنوالاً تحاك عليه شباك السياسات. ولا رفعتك عالياً لتعفّر جبينك بحمأة الضغائن والفتن. ولا غسلت أقدامك بماء الطهر، وكحلت أجفانك بمرود النور، وبرّدت قلبك بندى السلام لتعود فتغرقك في بحار من الدم.

فما للأرزة في عَلمك تَطْلُع من أديم بلون الدم وتَتَطلّع إلى أديم بلون الدم؟ وأحْرِ بها أن تطلع من تربة نقيّة نقاء ثلجك وأن ترفع رأسها في فضاء صافٍ صفاء ثلجك. أحْرِ بها - وهي

عنوان القوّة والرجاء والخلود - أن تحمل رسالتك إلى العالم، رسالة القوّة المؤمنة بالحق، والرجاء المنزّه عن الدنايا، والخلود القائم على وحدة الأرض وأبناء الأرض، ووحدة الأكوان كلّها في اللّه.

وعندئذ إذا قالوا استقل لبنان، قلت: استقل لبنان.

ولكن في أذنيك اليوم عجيج بحار وهدير شلاّلات كثيرة يا لبنان. فما إخالك تسمعني، وإن أنت سمعتني فما إخالك واعياً ما أقول.

ولسوف تسمع، ولسوف تعي يا لبنان.

غدا تنتهي الحرب

غداً تنتهي الحرب، فلا مدفع يقذف الحتوف، ولا دبابة تنشر البوار، ولا طيارة تمطر الفناء، ولا غواصة تزرع الأعماق ركاماً وعظاماً.

وتنكمش الأرض هنيهة على ذاتها فتناديها الشمس من فوق:

«السلام يا بنيّتي. ماذا عندك اليوم؟»

فتجيبها الأرض:

«كل شيء ما خلا السلام يا أمّاه.» وتمضي تنهب الأبعاد وتلفّ الأزمان وكأن شيئاً ممّا كان لم يكن. فلا معالم امّحت آثارها، ولا مدن دكّت إلى الحضيض، ولا ممالك تقطعت أوصالها، ولا عروش ثلّت، وتيجان تدحرجت عن رؤوس، ورؤوس تطايرت عن أجساد، وأجساد تفسخت أعضاؤها فتناتشتها الكواسر والضواري، وتقاسمتها الأوحال والأدغال، والفلوات والمستنقعات.

وكأن دمعاً فاض من مآقي البشرية ما كان غير ندى يسير بللت به الأرض بعض أعشابها؛ وكأن دماً تفجر من أوردة الإنسانية ما كان غير حُمرة لوّنت بها الأرض بعض أزهارها؛ وكأن لحوماً تمزّقت وعظاماً تفتتت من لحوم بني آدم وعظامهم ما كانت غير قِرى لبعض حيوان الأرض وطيرها وسمادٍ لبعض نباتها، وكأن عويل الثكالى، ونواح الأرامل واليتامى، وزفرات الجرحى، وأنّات المحتضرين، لم تكن غير حداء تحدو به الأرض قوافل أبنائها الراحلين؛ وكأن زمجرة القواد، وعربدة السياسيين، وشقشقة الفضوليين، وثرثرة العميان المتهوّسين، وأهازيج المنصورين، وغمغمات المكسورين، لم تكن سوى أنفاس مكروب، أو هذيان محموم.

غداً ينفخت الطبل ويبحّ المزمار فتنفرط عقود الملايين من المغنين والراقصين والممثلين، وينسدل الستار على أكبر وأروع مهرجان أقامه الجهل والبغضاء - ذانك الزوجان الوفيان اللذان ما برحا من البدء ينفحان الناس بالولائم السخيّة والمهرجانات المنقطعة المثال. ينسدل الستار، وينتثر شمل النظّارة والممثلين، ويعود الزوجان إلى خلوة مخدعهما لينسلا حروباً جديدة وويلات جديدة. وتطل الشمس من علاها فتقول للأرض:

«السلام يا بنتاه. ماذا عندك اليوم؟»

فتجيبها الأرض:

«هدنة ولا سلام يا أُمّاه.» وتنعكف على ما في أحشائها من عجائب الأسرار والأخبار فتُبرز للناس فتنة تلو فتنة من الجمال، وآية بعد آية من السحر الحلال. ولكنما الناس لا يأبهون.

غداً تنتهي حرب الحديد والنار فيعود المحاربون إلى حروبهم التي لا حديد فيها ولا نار، ومع ذلك لا يخمد لها أوار: حروب الآباء والبنين، والبنات والأمهات؛ حروب المنتجين والمستهلكين، والبائعين والمشترين، والمؤجرين والمستأجرين، والمعلمين والمتعلمين، وأصحاب العمل والعاملين، والجائعين والمتخمين، والقضاة والمتقاضين والمحامين؛ حروب الحاكم والمحكوم، والظالم والمظلوم، والعليل والطبيب، والمؤمن والملحد؛ حروب المخادع الزوجية، والخلوات الغرامية، والمؤتمرات السياسيّة؛ حروب الأذواق، والأفكار، والتقاليد؛ حروب العيون والألسنة والأقلام؛ حروب حارث الأرض مع السماء، وزارع الأمل مع الشقاء، وأخي اليأس مع الرجاء.

يا لها من حروب لا يحصيها عد ولا يحدها حد. لا مهادنة فيها ولا هوادة. تغلي مراجلها ليل نهار غليان الحمم في

جوف بركان. ولكنها لا تعتبر في عرف الناس حروباً حتى يسمع لها دوي وانفجار. أما إذا تجاوبت بدويها الأجواء، واندلعت أمعاؤها الملتهبة على الأرض فالتهمت أخضرها ويابسها، وقوضت عمارها، وطمست آثارها، وصبغت بالأرجوان أديمها وأنهارها، فهي إذ ذلك الحرب الضروس، والناس إذ ذلك صوت واحد: «نجّنا اللهم من ضنك الحروب وويلاتها واجعل هذه الحرب خاتمة الحروب.» جاهلين أن هذه الحرب بنت تلك الحروب، وهذا الانفجار وليد تلك النار، وأنهم قد جعلوا من صدورهم مواقد، ومن قلوبهم وقوداً.

وتشرق الشمس مرّة أخرى على الأرض فتحيّيها قائلة:

«السلام يا ابنتي المصطفاة. ماذا عندك اليوم؟»

فتجيبها الأرض:

«نار ولا انفجار يا أماه. وشوق إلى السلام ولا سلام.» وتنطلق في طريقها فلا تسرع لحظة ولا تبطئ لحظة. ومن المصهر العجيب الذي هو قلبها ترتفع حرارة قدسية إلى وجهها الأقدس فلا يلبث أن يورق ويزهر ويثمر خيرات تفوق حاجة كل مخلوق توطن الأرض.

غداً تعود ميادين الحرب حقولاً وغابات ومدناً آهلة. فيمشي

المحراث في أثر المدفع، والثور في أثر الدبابة، وتقتفي الفأس الرصاصة، والمطرقة القنبلة، وتخضر القبور، ويعود النور من منفاه، وتخرج العذارى من خدورهن، والعجائز من مخابئهن، والذين في الأرحام يبرزون إلى عالم سماؤه هي هي وأرضه هي هي. ولكن كبارهم سيوقعون في خلدهم أن عالم الأمس غير عالم اليوم، ولكن أمهاتهم سيرضعنهم مع اللبن حب الانتقام. وأما اليد التي على المحراث فستبذر مع كلّ حبة لعنة، والتي على الفأس ستقطع مع كلّ عود يداً، والتي على المطرقة ستسحق بكلّ طرقة جمجمة - ولو بالخيال، والتشفي بالخيال لأفظع في بعض الظروف من التشفي بالفعل.

وتنادي الشمس ابنتها البكر:

«السلام يا بنتاه. ماذا عندك اليوم؟»

فتجيبها الأرض:

«عندي بذار جديد لحروب جديدة يا أماه. أما السلام فما أبصرت وجهه بعد.» وتتابع السير، والأفلاك تسلّم عليها، فلا تستطيع أن ترد سلامها سلاماً.

غداً تضع الحرب أوزارها فتضيف الإنسانيّة وزراً جديداً إلى أوزارها القديمة. وفي مكان ما من بلاد ما يجتمع جمهرة

من زعماء أمم الأرض - منصورهم ومكسورهم - وينكبّون على أكداس من الأوراق والخرائط يفصّلون منها أرضاً جديدة لأمم جديدة. فتخوم تتدانى وأخرى تتباعد، وأمم تنفصل عن أُمم.

وللسعايات طنين ودبيب، وللمطامع أزيز ولهيب، وللبغض فحيح وزئير، وللرياء بسمات صفراء وقهقهات بلهاء. أما المحبة فلا رسم لها ولا صوت، والتلفظ باسمها سخافة وشنار. وأمّا الحقّ فممسحة لأرجل الداخلين والخارجين. وأمّا المغفرة فبغيّ مذبوحة من الوريد إلى الوريد ومنسية في جبّانة الغرباء والأشقياء والمنبوذين. وأمّا الأخوّة فسلسلة مفكّكة الحلقات يتلهّى بها القائمون على حراسة الأبواب.

ويبقى مهندسو العالم الجديد واعوانهم أياماً طوالاً يجمعون ثمّ يفرقون، ويرسمون ثم يمحون. وعيال اللّه في كلّ مكان أُذُنٌ واحدة تلتقط بشوق ما بعده شوق كلّ شاردة وواردة تتسرّب إليها من أفواه أولئك المهندسين وأبواقهم. والعالم قلب واحد تكاد تنقطع نبضاته في انتظار النبضة الرهيبة التي ستنطلق في النهاية من دار القضاء الرهيب؛ وجحافل الأرواح التي زهقت روح واحد يرفرف بملايين الأجنحة فوق تلك الدار لعلّه يوحي إلى الذين فيها

بعض ما استوحاه من حكمة الموت. ولكنهم لا يسمعون خفق أجنحة الموت ولا تمتمة شفاه الحكمة.

وأخيراً ينتهي المهندسون من وضع تصاميمهم. فيختمونها بأختامهم ويوقعون عليها أسماءهم غير عالمين أنّهم قد أخفوا تحت كلّ ختم وفي كلّ توقيع مدافع ودبابات وطيارات ستبدأ منذ الساعة بتقويض العالم الذي هندسوه واتفقوا عليه. ويهنئ الناس بعضهم بعضاً قائلين: «لقد انتهت الحرب. وسنعيش بعد اليوم في سلام.»

في ذلك اليوم تنادي الشمس ابنتها الحبيبة فتقول:

«السلام يا ابنتي الحبيبة: ماذا عندك اليوم؟»

فتجيبها الأرض: «عندي معاهدات سلم ولا سلم يا أمّاه.»

ويسجّل الناس في تاريخهم نهاية حرب من حروبهم. وتمضي الأرض في سبيلها هازئة بما هندس المهندسون وأرّخ المؤرّخون، حاملة في أحشائها أجنّة حروب كثيرة، وفي ديماميسها لحود مؤرخين ومهندسين بغير عدّ، وفي مسامعها عويل أجيال ما وُلدت بعد، وفي حبة قلبها إيمان البسطاء مثلي بمحبة أقوى من أن تحارِب أو تحارَب، وحقّ أعزّ من أن يُسلب أو يُنال بحدّ السيف.

كيف نتفاهم

يتفاهم الناس بالكلمات والإشارات. ولكن الكلمات والإشارات التي يستعينون بها على التفاهم هي عينها التي توقعهم في سوء التفاهم. فما من كلمة وصلت يوماً فكراً بفكر إلاّ كانت السبب في فصل فكر عن فكر. بل إن الكلمة التي تقرّب اليوم ما بين إنسان وإنسان قد تبعد في الغد ما بينهما. وما من إشارة كانت أداة جمع في حال من الأحوال إلا كانت أداة تفرقة في غير تلك الأحوال. بل إن الإشارة الواحدة قد تؤدي ألف معنى لألف ناظر. فكم من حركة إذا بدرت منكم كانت للبعض حركة سلام وللبعض حركة خصام. وإن هي بدرت من غيركم انعكست الآية فكانت خصاماً للأوّلين وسلاماً للآخرين. وكم من كلمة تتلفّظون بها فتؤدي إلى السامعين بعض ما حمّلتموها من معانٍ ومقاصد لا كلّها، وأحياناً فوق ما حمّلتموها، أو عكس ما حمّلتموها من المقاصد والمعاني.

ذاك هو الواقع. وهو أمر طبيعي لا عجب فيه ولا غرابة. بل

لقد كان من الغرابة ومن العجب بمكان لو أن الأمر كان غير ذلك أو على العكس من ذلك. فكانت الكلمات والإشارات ذوات مدلولات محدودة تؤدي معاني لا تتغير وألواناً لا تتبدّل لكلّ الناس بالسواء في كلّ حال من أحوال الزمان والمكان. إذاً لكان الناس غير الناس. ولكانت اللغة جهازاً من الحديد والفولاذ لا يلين لشاعر ولا يلتوي لناثر. أما والناس على ما نعهد من عظيم التفاوت في الفهم والذوق والمزاج والشعور فاللغة التي يتفاهمون بها لا يمكن أن تكون غير جهاز مرن يتكيّف بفهم المتكلّم والسامع وبذوقيهما ومزاجيهما وكل ما انطوى عليه صدراهما من شتى ألوان الشعور والانفعالات بظواهر الوجود وبواطنه.

اللغة في القاموس مومياء. أما على ألسنة الناس وشفاههم فكيان حي يزخر بأمواج الأفكار والخيالات، ويلتهب بكلّ أصناف الميول والإحساسات. فهي لا حياة لها في ذاتها. ولكنها تستمدّ حياتها من حياة المتكلم والسامع. فالعنصر الأساسي فيها هو الإنسان أوّلاً وآخراً. ولو أن الإنسان كان عنصراً محدوداً ومفهوماً، وكان على وتيرة واحدة في كلّ زمان ومكان، لكانت اللغة أداة تفاهم يستحيل أن يتسرّب إليها أقلّ ظلّ من سوء التفاهم.

إلاّ أن الإنسان مجموعة أحاجٍ ومتناقضات، لأنّه ما برح من حياته في مرحلة الخير والشرّ. فكيف للغته أن تكون غير مجموعة من الأحاجي والمتناقضات؟ وكيف لإنسان لا يفهم نفسه أن يفهم إنساناً لا يفهم نفسه؟ إنما يمكن التفاهم الكامل بين اثنين يفهم واحدهما نفسه على حدّ ما يفهمها الآخر بالتمام. وفي ما عدا ذلك فكلام الناس محتوم عليه أن يكون مزيجاً غريباً من التفاهم وسوء التفاهم، لأن الناس أنفسهم مزيج غريب من الفهم وسوء الفهم.

تلك حقيقة لا مناص لنا من التسليم بها، وهي حقيقة موجعة من غير شك. فالتفاهم الكامل لا يتمّ إلاّ بالمعرفة الكاملة. أما بين جاهل وجاهل، أو بين عارف وجاهل، فالتفاهم الكامل ضرب من المحال. وإن شئتم دليلاً على ذلك فلكم في الأنبياء والمرسلين خير دليل.

أليس أن الأنبياء والمرسلين جاءوا العالم بآيات من عند ربهم منزلات؟ فماذا كان نصيبهم من الناس؟ لقد أساء الناس فهمهم فناصبوهم العداء وشنّوا عليهم حروباً شعواء. حتى الذين آمنوا بهم في حياتهم أو بعد مماتهم ذهبوا في تفسير أقوالهم مذاهب شتى. فكانت الملل وكانت النحل، وكان ما بينها من نزاع دام ما

التأمت كلومه بعد، وصراع عنيف ما تزال نيرانه حيّة تحت الرماد. وكلاهما وصمة على جبين البشرية وتشهير لجهلها وضعفها وإلحادها وبعدها عن المعرفة الحقّة والإيمان القويم. فإن يكن كلام اللّه للناس مدعاة لسوء التفاهم بين الناس فكيف بكلام الناس للناس؟

لو أن سوء التفاهم ما أثار غير حروب كلاميّة بين الناس لهان الأمر. ولكنه يكاد يكون مكمن الداء الأكبر والبلاء الأعظم، والعش الذي فيه يبيض وينقف كل خلاف مسلح على الأرض ما بين إنسان وإنسان، وما بين أمة وأمة. فجراثيمه ما دخلت جسماً إلاّ تغلغلت في تلافيف الدماغ، وتعلقت بشغاف القلب، ومشت في كلّ وريد، وفي كلّ مجرى من مجاري النفس، وتحصّنت في كلّ مفصل وفي كلّ عضل. فجعلت من كلّ إنسان شبه صديق وشبه عدوّ لكلّ إنسان، وبات الناس لا يعرفون متى ينقلب الابن على ابيه، والأخ على أخيه، والزوج على زوجه، والجار على جاره، والحليف على حليفه. فما من ناحية من نواحي حياتهم إلا كان لسوء التفاهم فيها جراثيم، فهي في المعبد وهي في المدرسة وهي في المخزن وفي المعمل. وهي في دور القضاء، ودواوين الحكم وكلّ ما يتصل بحياة الإنسان إن بكثير أو بقليل.

فأين المخرج؟

أما من سبيل إلى التفاهم؟ أنقول إن الإنسان مقضي عليه بحياة نصفها تفاهم ونصفها سوء تفاهم، ثمّ نستسلم لذلك القضاء صاغرين ونمضي ننحر أيّامنا السمان لأيامنا العجاف فلا تسمن ولا نسمن؟ أنجمع ههنا لنفرق هنالك، ونبني اليوم لنهدم في الغد؟ أنبقى ريشة لا يجذبها التفاهم إلى أعلى حتى يشدّها سوء التفاهم إلى أسفل، فلا هي في السماء ولا هي على الأرض؟

أقول كلاّ، ثمّ كلا. فالتفاهم عملية روحية تتم في القلب لا عملية رياضية تتمّ في الدماغ. أفما قيل من زمان إنّه من فضلة القلب يتكلّم اللسان؟ وإذ ذاك فالقلب هو المصفاة التي يتصفى فيها الكلام من أحساكه وأدرانه. فيصبح الغامض منه جليّاً، والمبهم غير مبهم. ألا ترون إلى التفاهم ما أسهله بينكم وبين إنسان يحبكم وتحبونه حتى وإن كنتم وإياه على خلاف في مدلول هذه الكلمة أو تلك الإشارة؟ أوَما ترون إلى التفاهم ما أصعبه بينكم وبين من تكرهون، حتى وإن كنتم وإياه على وفاق تامّ فيما يختصّ بمعاني الكمات وألوانها؟

وعلى غرار ذلك أقول لكم إن التفاهم بين المؤمن والمؤمن أسهل بكثير منه بين المؤمن والملحد.

إذاً فالتفاهم لا يقوم على معرفة اللغة وأصولها لا غير. بل لا بدّ له من قلب مؤمن ومحبّ. ولقد كان يكفيكم الإيمان وحده لو كان لكم الإيمان الأمثل. ولقد كان يكفيكم المحبة وحدها لو كانت لكم المحبة الكاملة. أما وإيمانكم ما بلغ بعد سنّ الرشد فليتوكّأ على محبتكم. أما ومحبتكم ما فطمت بعد عن ثدي ذاتكم الأرضية فليكن لها من إيمانكم عضد وسند.

إنما المحبة مفتاح به تدخلون قلوب الناس، وبه يدخل الناس قلوبكم. ومتى انفتحت لكم قلوب الناس، وانفتحت قلوبكم للناس عشتم وإياهم في تفاهم دائم. وما دامت قلوبكم مغلقة دونهم، وقلوبهم مغلقة دونكم بقيتم وإياهم في سوء تفاهم أبدي.

وإنّما الإيمان بهاءٌ مؤنس هادئ، إذا ما شاع في خفايا نفوسكم بدّد ظلماتها فأبصرتم اللّه في قلوبكم وأبصرتموكم في قلب اللّه، لا يحدكم زمان أو مكان، ولا يفصلكم أي فاصل عن أي إنسان. فالناس كلهم فيكم، وأنتم في كلّ الناس. إن أساؤوا فهمكم قلتم: ما أساؤوا الفهم ولكننا أسأنا التعبير. فما جعلتم من أنفسكم قضاة وديانين بل كنتم إلى المعذرة أسرع منكم إلى اللوم، وإلى المغفرة منكم إلى الانتقام، عالمين أن القضاء للّه وحده، وأن الدينونة للّه وحده، وأن اللّه ادرى منكم بتدبير خَلقه. فهو ما

خلقكم لتقوّموا بل لتستقيموا، وما سخّر لخدمتكم كلّ ما في السماء وعلى الأرض إلا سخركم لخدمة كلّ ما على الأرض وفي السماء. فأنتم أبداً خادمون ومخدومون، وأنتم أبداً معلمون ومتعلمون. فأحسنوا خدمة الغير ليحسن الغير خدمتكم. وأحسنوا تعليمهم ليحسنوا تعليمكم. وكونوا على يقين أن عالم المؤمنين والمحبين عالم تفاهم وسلام، وأن عالم الملحدين والمبغضين عالم سوء تفاهم وخصام.

وجندي واحد في معسكر التفاهم والسلام لأحبّ إلى اللّه وأنفع للناس من ألف قائد في معسكر سوء التفاهم والخصام.

حلم عن موسوليني

ينقضي العمر ما بين غفلة ويقظة. وغفلة العمر أطول من يقظته بكثير، وأعمق منها بكثير. فالنوم وحده يستغرق نصف الزمان الذي نطويه بين المهد واللحد. وما تبقّى فللذهول منه قسط كبير، ومثله للنسيان والحداثة والخرف وللمرض وللطوارئ التي تصدم الفكر صدمات عنيفة تصرفه عمّا هو جارٍ فينا ومن حولنا.

إنّنا نحيا بغفلتنا أكثر منّا بيقظتنا. وغفلتنا هي ذلك المحيط الشاسع الذي ليست اليقظة سوى الزبد المتطاير على سطحه. فهو يحمل في أحشائه كلّ ما خبرناه وسنخبره، عن وعي وعن غير وعي، من شؤون الحياة منذ كنّا وكان الزمان وما دمنا ودام الزمان.

أليست أحلامنا في الليل بعضاً من حياتنا في النهار؟ فكيف لنا أن نهملها في علومنا التي بها نتوخّى أن نفهم حياتنا؟ وهل يمكن أن نفهم حياة النهار من غير أن نفهم حياة الليل؟

إني من المؤمنين بالأحلام والقائلين بأن درسها قد يفوق

بقيمته درس الكثير من الأمور التي ينصرف إليها العلم والعلماء. فمن الأحلام ما يؤكّد لي أن الإنسان على اتصال دائم بكلّ ما كان وما هو كائن وما سيكون. وأنّه في بعض حالات الغفلة يتصل بأمور ما تزال في عالم الغيب بالنسبة إلى الحواس لا غير.

فلو شبهنا الزمان بخيط يلتفّ على بكرتين تتحركان بسرعة واحدة وفي اتجاه واحد إحداهما من اليمين والأخرى من اليسار، ومن ثمّ لو تخيلنا البكرتين في حركة دائمة لكان لنا فيهما ماضي الزمان ومستقبله وفي الخيط ما بينهما حاضره. فالزمان كلّه حاضر أبداً. وإذا ما غاب منه شيء فعن الحواسّ التي لا تستشعر الأشياء إلاّ مباشرة. أما القوّة الواعية في الإنسان فمتى انعتقت من قيود الحواس كما تنعتق في المنام فلا يندر أن تتصل بأمور لفّها ماضٍ سحيق وأمور ما برحت ملفوفة على بكرة الزمان الآتي، وأن تعود بها في شكل رسوم جلية أحياناً وأحياناً مموهة بشتى الرموز.

وها أنذا أروي لكم حلماً عن موسوليني رأيته نحو منتصف الساعة السابعة من صباح الواحد والثلاثين من كانون الأوّل سنة ١٩٤٢، وقد دوّنته على الأثر بالتفصيل. وأشهد أنني ما كنت قبل ذلك بيوم أو بأيام أفكر بموسوليني إلاّ كما كنت أفكّر بسواه

من زعماء الأمم المتحاربة كلما وقعت عيني على أسمائهم في الصحف أو اتّفق لي أن تحدّثتُ عنهم أو حُدّثت.

حلمت بأنّني واقف ضمن غرفة ما دخلتها من قبل في حياتي. وكان باب الغرفة من خلفي مفتوحاً. وعلى خطوتين مني إلى اليمين، وبالقرب من الباب، سرير عليه أكثر من لحاف واحد من الصوف لا ترتيب في وضعها البتّة. واللحاف الذي من فوق الكلّ أحمر قانٍ. وفي السرير رجل عرفت فيه موسوليني كما رأيته غير مرّة في رسومه المألوفة. وقد جلس نصف جلسة مسنداً ظهره إلى كومة من الوسادات عند رأس السرير. وكان مرتدياً قميصاً أسود خفيف النسيج، ومن تحت ذلك القميص، عند فتحة العنق، قد بان قميص آخر رمادي اللون، ثمّ آخر من لونه ولكن فيه خطوطاً عريضة حمراً. ومن تحت هذه القمصان الثلاثة اثنان أبيضان من القمصان التحتانية.

وقفت أتأمّل الذي في السرير فلا أكلّمه ولا يكلمني. ولقد عجبت له كيف يطيق كثرة قمصانه وكيف أنّه اختار اللون الأسود لأوّلها وأهمها، وهو لون لا يوائم سمرة وجهه، ثمّ قلت في فكري لعلّه لبس القميص الأسود استعداداً لاستقبال رسمي.

وما هي غير لمحة حتى أخذ رأس الرجل الذي بإزائي

يتضاءل ويتضاءل من غير أن تتغير ملامحه إلى أن أصبح بحجم الرمانة لا أكبر. فأدركت عندئذ أنّه مريض. ثمّ سمعته يخاطب طبيبه الذي ما رأيت وجهه، ولكنني ظننت أنّه هتلر، فيطلب إليه أن يأتيه بميزان الحرارة قائلاً بلهجة ما بين المزح والجدّ، ولكن فيها الكثير من الامتعاض:

«لا شغل لكم إلا أن تفحصوا عن حرارتي. هاتوا الميزان. خذوا الميزان.» وأردف ذلك بنكتة بذيئة. ثمّ التفت إليّ وفاه بكلمات لا أذكرها. ولكنني فهمت منها أن وجودي في الغرفة يزعجه. فخرجت في الحال. وانسدل الستار على ذلك المشهد ليرتفع عن آخر. فإذا بي جالس إلى مائدة طويلة في وسط قاعة فسيحة من البيت ذاته. وقد جلس قبالتي شاب حمصي كان رفيقاً لي في المدرسة التي تخرّجت منها في روسيا. وأمامنا على المائدة طبقان كبيران من الفضة عليهما عنب كثير إلاّ أنّه عنب ما وقعت عيني ولا عين بشر غيري على مثله. فقد كان كاللؤلؤ المنضّد، لا تختلف حبّة من حبّاته الشفافة المستطيلة عن غيرها لا شكلاً ولا لوناً ولا طعماً. وكنت ورفيقي نأكل منه بشهية لا توصف.

وحانت مني التفاتة إلى باب مغلق عن يميني وإذا بموسوليني

واقف بجانبه. ففهمت أنّه صاحب البيت وأنّه مضيفنا. ولكنه هذه المرّة في زيّ ضابط القوزاق الرّوس، على رأسه قبعة عالية من الفرو الأسود كالتي يلبسها القوزاق، وقد ارتدى «قفطاناً» أسود كالذي يرتديه القوزاق، وعلى صدره صفان من خرطوش البنادق. وكان في هذا الزي كأنّه عملاق من العمالقة.

نظرت إلى موسوليني القوزاق فتراءى لي أنّه عازم على الذهاب بمهمة ما، وأن لياقة الضيافة كانت تمنعه من تركنا قبل أن ننتهي من الأكل. فأشرت إلى رفيقي أن يتوقف عن الأكل. وكانت الحبات الأخيرة التي في يدي قد تغير طعمها ولونها، فما كانت من الحلاوة والجمال كالتي أكلتها من قبل.

عندها نهضت واقتربت من موسوليني ووضعت يدي في يده مخاطباً إيّاه بالروسية: «إني بصرف النظر عن معتقداتي السياسيّة أجلّ الزعماء المخلصين.» وبغتة تنبهت إلى أنّني أكلمه بالروسية التي يجهلها. فاعتذرت وسألته إذا كان يحسن الانكليزية. فأجابني بإشارة فهمت منها أن له بعض الإلمام بالانكليزية. عندئذ أعدت عليه بالانكليزية ما قلته بالروسية. وكان بخاطري أن أوضح له أنّني، وإن خالفته في عقيدته السياسيّة، لا يسعني إلاّ أن أشكر له حسن ضيافته. لكنني، وقد شعرت بضيق

الوقت، ما قلت شيئاً من ذلك بل اكتفيت بهزّ يد موسوليني وبكلمتين روسيتين تقالان عند الوداع ومعناهما: «أتمنى لك كلّ خير.»

وكأنّ موسوليني فهم ما قلت، ولأنّه ما كان يتوقّع تمنيات الخير مني لعلمه بأني أشجب أساليبه السياسيّة، التفت إليّ بدهشة وقال بالعربيّة العاميّة: «ما قدرت تكتمها؟» وانصرف.

هنا انتهى الحلم فأفقت من نومي والصباح في غرفتي وشبح موسوليني أمام عيني وصوته في أذني. ولقد رقبت مجرى الحوادث من ذلك فإذا بالقسم الأوّل من الحلم يتحقّق بوضوح مدهش. وأما الثاني فما يزال قيد التحقيق. وإني لأترك أمر تفسير رموزه الكثيرة للأيام المقبلة وللذين أُوتوا من ربهم بصيرة يوسف بن يعقوب.

دولـة الإنسـان

اتفق لي منذ أيام أن شهدت كتيبة من الجنود الأجانب تجتاز على الأقدام قرية من قرى لبنان، وعلى ظهر كلّ جندي عتاده المألوف وفي كتفه بندقيته. وكانت تباشير الربيع ملء الجو والأرض؛ فالسماء مرآة مجلوة، والهواء نسمات مصفاة؛ والشمس عين نيّرة في كلّ عين، وحياة فوّارة في جسم كلّ حي؛ والجبال نماريد تستفيق من غفوة الشتاء وتنفض عن أجفانها أحلامه البيض، والأغوار حناجر تتدفّق منها أهازيج الأمواه المتسابقة إلى البحار؛ والكروم والحقول والبساتين عذارى يتمخضن بربوات البنات والبنين؛ وأسراب السنونو أجواق من الأرواح السكرى ببشارة الربيع الجديد؛ ورجال القرية ونساؤها في حمى من الحركة. فللتربة في آذانهم نداء لا يسكن، وللجذور والأغصان في دمائهم مهاميز لا تهدأ، وللأعشاب في أنوفهم عبير يفعل في رؤوسهم فعل الحميّا، فلا يطيقون القعود والسكون.

إلاّ أنّهم - أعني رجال القرية ونساءها - لمّا أبصروا الجنود

الأغراب في قريتهم تركوا أشغالهم وأسرعوا إلى جوانب الطريق يتأمّلون هذا المشهد الذي ما ألفوا مثله من قبل، وراحوا يستقبلون الجنود ويشيعونهم بأنظار يفيض منها مزيج غريب من العواطف الحائرة ما بين الدهشة واللهفة، والذعر والشكر، والاعجاب والعتاب. فما كنت تسمع، ولا سيما من النساء، غير زفرات ترافقها عبارات من نوع «تبّاً للحرب ما أقساها. لا كانت الحروب ولا كان مثيروها. واحسرتاه على مثيل هذا الشباب الغضّ يساق إلى الموت سوقاً، وما ذنبهم؟ والهف قلبي على قلوب أمهاتهم وأزواجهم. أين يا ربي - المجد لاسمك - لا تقتصّ من هؤلاء «الملوك» الذين يتحاربون بأرواح الناس، ولا من يدري لماذا يتحاربون؟»

أما أنا فكنت بادئ ذي بدء أبصر ما يبصره أهل تلك القرية وأسمع ما يسمعون، وأفكر مثلما يفكرون بأولئك الجنود من أين جاؤوا، وعن أي قلوب انسلخوا، وإلى أين تمشي بهم مناياهم، ومن منهم سيعود رجلاً كاملاً أو شبه رجل إلى أوطانه، ومن منهم لن يعود لا رجلاً ولا بعض رجل، وهل بينهم من يشعر حقّاً بأن هذه الحرب حربه، وأنه رهَن لها حريته وحياته ليكفل للأجيال الآتية عالَماً لا تُرهن فيه للحروب حرية أو حياة.

وتطاوحت بي أفكاري فما أدري أية نسمة قدسية نفخت في قلبي وأية يد سحرية مسحت أجفاني. وإذا بي لا أبصر جنوداً ولا أسمع زفرات حائرات، بل إذا بي في مؤتمر ضمّ نخبة من الرجال تمثّلت فيهم كلّ شعوب الأرض وقد قام من بينهم واحد وراح يخطب فيهم هكذا:

«لقد آن الأوان.

لقد آن للإنسان أن يملك الأرض التي ملكته، فهي ميراثه منذ الأزل وما كان ميراثها يوماً من الأيّام؛ وقد اشتراها بلحمه ودمه.

لقد آن لهذا الكائن العجيب الذي كان في البدء واحداً فازدوج فتثلّث فأصبح كثرة مبلبلة الألسن والمقاصد، حائرة النظرات والخطى، متباعدة الأفكار والأفئدة؛ لقد آن له أن يعود فيتوحّد، وأن يمشي بخطوات لا تردّد فيها إلى ميراثه الغنيّ بالكنوز والعجائب.

لقد آن لهذا العامل أن يأكل خبزه بعرق جبينه من بعد أن أكله دهوراً بدم قلبه.

أجل. لقد آن للإنسان أن يستعبد الأرض التي استعبدته، وأن يحسن استثمارها.

كفانا خدمة للموت أيها الناس، وقد حان الزمان الذي فيه يليق بنا أن نخدم الحياة. أفما تخجلون من الذين طوتهم الأرض منذ أن كانت الأرض؟ إنّهم - من أي جنس كانوا وأينما لاقوا حتوفهم وكيفما لاقوها - ما كانوا غير جنود جادوا بأرواحهم في معركة الإنسان مع الأرض؛ ولقد ربحوا المعركة. ربحوها ومضوا تاركين لكم حقّ التمتّع بالغنيمة؛ فالأرض دانت لكم بطولها وبعرضها، دانت لكم بجبالها وسهولها، بغاباتها وفلواتها، ببحارها وأجوائها؛ بما هبّ فوقها ودبّ عليها، ونام في أحشائها، وما لم يدِن منها فسوف يدين.

فماذا الذي تنوون أن تفعلوه اليوم بالأرض؟

أتمضون في آثار أسلافكم فتجزّئون الأرض، وتقيمون لأجزائها التخوم، وعلى التخوم، الجنود والحصون؟ وهي ما استعبدت أسلافكم إلاّ لأنّهم حاولوا تجزئتها فجزّأتهم وبقيت وحدة لا تتجزّأ. أمّا التخوم والحصون، وأمّا الجنود فما كانت ولا كانوا سوى سطور في بحور.

حذار من التخوم حذار! فإنّه لأيسر أن تقيموا تخوماً بين أمواج البحر ورياح الجوّ وأشعّة الشمس من أن تقيموها بين إنسان وإنسان، أو بين عشيرة وعشيرة من الناس. فالإنسان بحر وأيّ بحر.

والإنسانيّة محيط وأيّ محيط. لها مدها ولها جزرها. فمن راح يعمل على لجم ذينك المدّ والجزر كان كمن يعمل على لجم العاصفة.

وأنتم لو أتيح لكم أن تقيّدوا أقدام الناس فلا تجتاز هذا التخم أو ذاك، وأن تغلّوا أيديهم فلا تتناول شيئاً ممّا خلف ذلك السياج أو ذيالك، فكيف تقيّدون أفكارهم وأحلامهم، وبماذا تغلون إحساساتهم وأشواقهم؟ وأفكار الناس وأحلامهم وإحساساتهم وأشواقهم تسرح وتمرح وتتلاقى وتتصارع وتتناسل في جوّ أين منه جوّ الأرض؛ وهو جوّ لا تخوم فيه ولا سياجات ولا حصون.

ومن ثمّ فما بالكم تحدّون من حرية الإنسان في الحركة على سطح الأرض فتحرّمون عليه الانتقال من هذه البقعة إلى تلك بغير جواز، والذبابة والنملة والخنفساء والضب والظربان والحرباء وسواها من حيوان الأرض وحشراتها تنتقل من بقعة إلى بقعة طالبة رزقها وليس من يقول لها من أين وإلى أين ولماذا؟! لعلّ الإنسان أحقر من الذبابة والنملة والخنفساء والضبّ والظربان والحرباء؟ أم لعلّ لها من الأرض حصّة أكثر ممّا له، وقد اشتراها كلّها بدمه؟ فعلام تسلبونه حقّه في طلب الرزق من الأرض حيثما شاء ومتى ما شاء؟ حرام عليكم، حرام، حرام!

أتقولون إن هذا الشعب أو ذاك أحقّ من سواه بخيرات الأرض لأنّه فعل أكثر منه في تذليلها، وقدَّم من فكره ومن لحمه ودمه أكثر ممّا قدَّم سواه في سبيل الغلبة عليها؟

ألا ليته كان لكم أن تستعيدوا من التراب عظام كل الذين هلكوا منذ آدم حتى اليوم - إذاً لسألتكم أن تدلوني على التي شقيت أكثر أو أقلّ، وجاهدت أكثر أو أقلّ في سبيل التغلب على الأرض، وأن تفصلوا لي بين أبيضها وأسودها، وأحمرها وأصفرها، ونبيلها وخسيسها، وشجاعها وجبانها، وسخيّها وشحيحها. جيشٌ واحدٌ، ومعمعة واحدة، وغنيمة واحدة. والغنيمة هي الأرض.

إنّما الغلبة للإنسان، لا لقوم دون قوم. فلينعم الناس بها كلّ على قدر حاجته. ولتكن في الأرض منذ اليوم دولة واحدة تنضوي تحت لوائها ألوية كل دويلات الأرض، ويجتمع تحت قبّة برلمانها ممثلون من كلّ برلمانات الأرض، ويقوم على حراسة الأمن فيها جنود مختارون من كلّ شعب من شعوب الأرض.

اي ثم اي. لتقم على أكتاف دويلات الناس دولة الإنسان كيما ينعتق جسمه من حواجز التخوم والحصون، ويُفلت فكره وخياله من أقفاص الأوطان والقوميات، وينصرف بكلّ ما فيه من

قوى لا تُحدّ إلى مقاتلة أعدائه الحقيقيين، فيقهر الفقر، والخوف، والجهل، ويجندل في النهاية عدوّه الألدّ - أعني الموت. حتى إذا ما استقلّ بميراثه في الأرض تطلع إلى ميراثه في السماء. ففي الأرض مفتاح السماء.

وإني لأقترح عليكم أن تجعلوا عاصمة دولة الإنسان في لبنان. فهو جبل الله المختار حيث تلتقي جميع سبل الأرض وشعابها، وحيث الطبيعة جوادة بالرفق والجمال حتى الفيضان.

لقد آن الأوان أيّها الناس. لقد آن.»

وانقطع الصوت. وإذا بصوت آخر يطرق مسمعي: «أما من نهاية لهذه الحرب؟»

فالتفتّ وإذا بشيخ قروي يدنو مني متوكّئاً على عصاه، وما من بشر في متناول عيني سواه. فأجبته: «ستنتهي، يا عمّاه. وقريباً إن شاء الله.»

ومشيت إلى بيتي ومشى معي الربيع. وأسراب السنونو من فوقنا في نشوة من التغريد والطيران وكأنّها تردّد:

«لقد آن الأوان. لقد آن.»

الفهرس

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب

يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهب الريح
دروب

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories

TWELFTH EDITION
1996

MIKHAIL NAIMY

Threshing Floors

البيادر

هذا الكتاب مجموعة إذاعيّات كُتِبت أثناء الحرب العالمية الثانية وتدور في معظمها حول ظاهرة الحرب. والحرب التي تستثير نعيمه هنا ليست فقط تلك التي تشبّ بين الجيوش والامم والتكتّلات الدولية، بل هي ايضاً وبصورة أهم، تلك التي تحتدم بين العلوي والسفلي في الذات البشرية فتنتهي بالانسان من الحرب في نفسه اولا الى حربه مع أخيه الانسان. لو عرف الانسان كيف يتسلّق الى الأعالي في نفسه فيبلغ القمة لأدرك من هناك وفي ضوء السموّ الذي فيه، كم هو منحطّ وسافل وبعيد عن حقيقته اذ يتحارب مع أخيه عند السّفح.

بيادر ميخائيل نعيمه هذه نموذج فذّ في الادب الانشائي لا في العربية وحدها بل ايضاً في سائر الآداب العالمية. إذ قلّ ان يتيسّر لكاتبٍ هذا التوفيق الرائع بين منتهى الابعاد الفكرية والروحية والانسانية، ومنتهى الدقّة في التعبير والسلاسة في اللغة واليسر في الأداء والقوة في التأثير.

صورة الغلاف - ميخائيل نعيمه في الخمسينات من عمره